

د.يسرى عبد الغنى

الحياة العلمية فى الدولتين الزنكية والأيوبية

521 هـ ـ 648 هـ

(1127 م ـ 1250 م)

الطبعة الأولى – أغسطس 2021

سلسلة روائع المبدعين المعاصرين العرب

العدد الرابع

العدد الرابع - أغسطس 2021

بطاقة الكتاب

عنوان الكتاب	الحياة العلمية فى الدولتين الزنكية والأيوبية
المؤلف	د. يسرى عبد الغنى
التصنيف	دراسة
رقم الإيداع	19439 - 2021
الترقيم الدولى	978-977-999-027-9
رقم الإصدار	773 الطبعة الأولى 2021
عدد الصفحات	98 صفحة
الغلاف	مؤسسة النيل والفرات

رخصة مزاولة مهنة: 58365 - سجل تجاري: 13242 / 2017 - بطاقة ضريبية: 35-01-572

عضو عامل باتحاد الناشرين المصريين رقم 941 لسنة 2018

هاتف: 01011256943 - 01116202218 - 01202541192 تليفاكس: 020554372901

nagyegy200064@gmail.com النيل والفرات

alnilwaalfourat@gmail.com alnilwaalfourat

المقر الرئيسي: ج.م.ع محافظة الشرقية - العاشر من رمضان - مجاورة 13 - أمام سنتر الـ13 - عقار 304

رئيس مجلس الإدارة
ناجى عبد المنعم

رئيس التحرير
د. محمد فتحى محمد فوزى

المشرف العام
أشرف بدير

المدير العام
د. أمانى إبراهيم

المدير الفنى
سميرة محمودى

نائب رئيس التحرير
يحيى أنور خليل

مدير التحرير
صباح محسن كاظم

سكرتير التحرير
عمر خالد محمد طه

مستشارو التحرير

صباح غميس الحمدانى
د. أحمد محمد الشربينى
رعد الناشى
مهند التكريتى
محمود الدسوقى
حيدر خيشان

سلسلة شهرية تُعنى بنشر إبداعات كبار المبدعين فى الوطن العربى

هذه السلسلة

هى من أهم السلاسل الثقافية والإبداعية التى تبنتها وأطلقتها مؤسسة النيل والفرات ، الهدف منها هو تكريم كبار المبدعين فى حياتهم بنشر مختارات من أهم إبداعاتهم أو عمل إبداعى واحد يترجم رحلة كفاحه وينقل الصورة الحقيقية المُشرفة لهذا المبدع

ونقدم فى هذا العدد دراسة (الحياة العلمية فى الدولتين الزنكية والأيوبية 521 هـ ــ 1127 م (648 هـ 1250 م)

للأديب الباحث والناقد الكبير د. يسرى عبد الغنى وهو غنى عن التعريف فقد أثرى المكتبة العربية بعشرات الكتب والأبحاث والدراسات والرؤى النقدية ، وتُرجمت أعماله للعديد من اللغات ، وحاز العديد من الجوائز والتكريمات التى شرُفت باسمه الكبير

نرجو أن نكون قد قدمنا لكم مايليق باحترام عقولكم وصفاء ونقاء قلوبكم .. وأن نكون قد وفقنا فى تكريم هذا المبدع الكبير فى حياته، أطال الله عمره ، ونفعنا بعلمه .

ناجى عبد المنعم

رئيس مجلس الإدارة

بسم الله الرحمن الرحيم



تقــديم

بقلم :

د. محمد فتحى محمد فوزى

رئيس التحرير

التاريخ هو الماضى الذى نستمد منه الحاضر ، وبه يضىء لنا المستقبل ومن خبراته ومواعظه نستفيد ؛ وكما يقول المؤرخ الإدفوى ت748هـ:" فإن التاريخ فن يُحتاج إليه وتتوقف الصناعة عليه إذ يعرف الخلف أحوال السلف ويتميز منه المستحق للتعظيم والتبجيل ممن هو أهون من النقير وأحقر من الفتيل، ومن وُسِم منهم بالجرح ومن رُسِم بالتعديل ، وما سلكوا من الطرائق واتصفوا به من الخلائق وأبرزوا من الحقائق للخلائق، وأيضا من أقوى الأسباب فى حفظ الأنساب أن تنساب، وقد وضع فيه السادة الفضلاء والأئمة العلماء كُتُبا تُكاثر نجوم السماء ،ثم منهم من رتب على السنين (الحوليات) ومنهم من رتب على الأسماء ليكون أسنا وأسمى، ثم منهم من خص بعض البلاد ومنهم من عم كل قطر" .

فعلم التاريخ تحفظ به الأنساب المترتب عليها صلة الأرحام ، والمتسبب عنها الميراث والكفاءة... وكذا نتعلم منه الآجال والحيوف واختلاف النقود والأوقاف التى ينشأ عنها من الاستحقاق ماهو معهود وينتفع به فى الإطلاع على أخبار العلماء والزُهاد والفضلاء والملوك والنبلاء وسيرهم ومآثرهم فى حربهم وسلمهم)(. والتاريخ من الأدب وهو أُنس لطيف تنشرح به الصدور وتُسر النفوس، ونوع طريف تتزين به المحافل وتُكتب الكتب وفن خفيف يتلقى بالأيدى فيحمل على الرؤوس وعلم ظريف تحيا به المعالم بعد الدروس ويؤنس فى الغربة ويميل إليه الرئيس والمرؤوس وقال فيه أبو إسحاق البيهقى (ر)

إن الجواهر درها ونضارها – هن الغذاء لجوهر الآداب

فإذا كنزت أو ادخرت ذخيرة – تسمو بزينتها على الأتراب

فقليل بالأدب المزين أهله – كيما تفوز ببهجة وثواب

فلرب ذى مال تراه مبعدا – كالكلب ينبح من وراء الباب

وترى الأديب وإن دهته خصاصة – لا يستخف به على الأبواب

والتاريخ هو ركن الأدب الذى يُستند إليه، وعماده المعتمد عليه المترجِم من تقدم فى الزمان، والمعرف بأحوال من له فى الشرف أعلى مكان، والمُظهر سيرة من سلف ومضى ، والمُبّين صفة من وُجِد وانقضى ،والمميز الخبيث الفاسق الردى، من الطيب الرضى ، والموضِح ما سمحت به القرائح والمعين من الفضائل ما حمله كل غاد ورائح، والموصِّل إلينا ما أتت به الأفاضل من اللطائف المبتدعة والمعانى المخترعة ، والطُرف التى هى بقوة الأفكار مُنتزعة هكذا يخبرنا المؤرخ جعفر الإدفوى ت748هـ. ومـــن ثم أُقـــدم وزملائـــى

فــــــــــى مجلس تحريرنا المـــوقـــر الأستـــاذ الدكتـــور المـــؤرخ "يسرى عبد الغنى" الذى طالما تغنى بالتاريخ وتسجيله، وكان يجب عدم إهدار حقه فى حصوله على جائزة الدولة التقديرية أو التشجيعية حديثا نظرا لجهوده الحثيثة فى خدمة التاريخ والدراسات الإجتماعية وتسجيلها ؛فيجب على المؤسسات الثقافية والجهات المعنية والأكاديمية فى الدولة وخارجها تقدير مؤرخنا الماتع الذى قدَّم الكثير من أجل التاريخ والمؤرخين؛ فحضرته قيمة وقامة علمية تطاول عنان السماء ؛ فنأمل الإستجابة لما ذكرنا ونعرض هنا من خلال السلسلة مادته التاريخيةالمعنونة بـــ الحياة العلمية في الدولتين الزنكية والأيوبية (521 هـ - 648 ه ــ1127 م - 1250 م) وتلك المادة يحتاجها الكثير من طُلَّاب التاريخ، وأصحاب مشاريع أطروحات الماجستير والدكتوراة والدراسات العُليا والمعنين بالدراسات الإجتماعية والمثقفين عموما. ونحمد الله أن سلسلتنا من "روائع كبار المبدعين العرب المعاصرين" مستمرة وهاهو يصدر منها العدد الرابع فى أغسطس بإذن الله؛ فكل الشكر للمتعاونين معنا سواء من مجلس التحرير الأبى أو من خارجه وعلى رأسه شاعرنا الكبير الدكتور ناجى عبد المنعم الذى لا يألو جهدا فى خدمة الثقافة العربية والعالمية، وما توفيقى إلا بالله وهو المستعان للوصول إلى بر السلام والأمان،

د. محمد فتحى محمد فوزى



الأديب الباحث والناقد الكبير د. يسرى عبد الغنى

الحياة العلمية

فى الدولتين الزنكية والأيوبية

521 هـ ـ 648 هـ

(1127 م ـ 1250 م)

د. يسرى عبد الغنى

تمهيد

في سنة 521 هـ ، تولى عماد الدين زنكي بن آق سنقر إمارة الموصلي من قبل السلطان السلجوقي الذي كانت له الكلمة العليا في البلاد التي تعترف بخلافة العباسيين .

وبدأت بولاية عماد الدين زنكي على الموصل حركة إحياء سياسي واجتماعي وثقافي في مناطق الجزيرة العراقية والشام التي كانت حتى ذلك الوقت مفككة الأوصال مشتتة الكلمة .

ولم تلبث هذه الحركة الإحيائية أن انتقلت إلى مصر عقب سقوط الدولة الفاطمية ، سنة 564 هـ ، أمام جيوش السلطان / نور الدين محمود بن زنكي ، واستمرت هذه الحركة على نشاطها في البلدين المتحدين (مصر والشام) منذ ذلك التاريخ حتى سقوط الدولة الأيوبية في مصر سنة 648 هـ ، لتخلفها دولة المماليك البحرية التي بدأت عهدًا جديدًا من الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية ، يختلف في بعض مظاهره عن العصر الأيوبي ، ويتفق معه في بعض آخر .

ومن ثم كان تحديد هذه الدراسة التي بين يديك ـ أيها القارئ الكريم ـ عن الحياة العلمية في مصر والشام مرتبطًا بهذين التاريخين 521 هـ ـ 648 هـ = 1127 م ـ 1250 م ، أي شاملاً للعصر الذي يبدأ بولاية عماد الدين زنكي إمارة الموصل ، وينتهي بسقوط الدولة الأيوبية ، وفي رأي الباحث أن هذه الفترة أو ذلك العصر لم يأخذ حقه من البحث والدرس والتمحيص

وبالذات الحياة العلمية أو الثقافية فيه (في مصر والشام) ، ولكن الحق يقال نذكر هنا المحاضرة القيمة التي ألقاها أستاذنا العالم الجليل الدكتور / محمد حلمي محمد أحمد (رحمه الله) على طلاب الفرقة الرابعة بكلية دار العلوم / جامعة القاهرة ، العام الجامعي 1973 / 1974 م ، وكان عنوانها : (الحياة العلمية في مصر والشام : 521 هـ - 648 هـ) ، وقد كان لكاتب هذه السطور شرف أن يكون ضمن الفرقة التي ألقيت عليها هذه المحاضرة القيمة ، التي تعد بمثابة مرجعية أصيلة للحياة الثقافية والعلمية في هذا العصر الذي نتناوله في سطورنا هذه ، والله تعالى ولي التوفيق .

....

وقد شهدت هذه الحقبة التي نتحدث عنها تغيرات رئيسية هامة ، كان من بينها :

- سلسلة الحروب التي دارت رحاها - في معظم مراحلها - بمصر والشام وهي الحروب التي عرفت في التاريخ باسم الحروب الصليبية .

- تلك الانقلابات السياسية والثقافية التي شهدتها هاتان المنطقتان نتيجة لتدهور سلطان الفاطميين الإسماعيليين ، وانتعاش النفوذ السني في ظل حكم السلاجقة وأتباعهم بالشام ، ثم في ظل الأيوبيين في مصر والشام جميعًا .

هذا ، وقد جاهد زنكي الأب منذ تولى شئون الموصل لوضع حد للخلافات السياسية الإقطاعية التي مزقت شمل الشام والجزيرة العراقية فنجح بحروبه المتتابعة في إيجاد نوع من الوحدة أو الاتحاد شمل جزءًا كبيرًا من هذه البلاد وأخضعها لسلطانه .

بعد ذلك جاء الابن نور الدين محمود زنكي ، سنة 541 هـ ، فبدأ من حيث انتهى والده ، ونجح في توحيد الشام والجزيرة جميعًا باستثناء المناطق التي كانت في أيدي الصليبيين .

ونشير هنا إلى أن إمارة الموصل العراقية وما تبعها كانت خاضعة لسيف الدين غازي بن زنكي ولكن سياسته العامة ، وسياسة من جاء بعده ، كانت متفقة تمام الاتفاق مع سياسة نور الدين محمود ومتعاونة معه .

أقول لك : مد نور الدين نفوذه إلى مصر حيث نجح قائده أسد الدين شيركوه ، عم صلاح الدين الأيوبي ، بعد محاولات ثلاث ، في إخضاعها لسلطانه .

وفي مصر ، بعد وفاة شيركوه ، ظهر صلاح الدين بذكائه وطموحه كوزير للخليفة الفاطمي الشيعي / العاضد بالله ، وقائدًا لجيوش صاحب الشام / نور الدين محمود زنكي ، السلطان السني .

ثم لم تلبث الخلافة الفاطمية أن انهارت ، فزال بانهيارها آخر ظل للنشاط الإسماعيلي الشيعي عن مصر ، واصطبغت البلاد منذئذ بالصبغة السنية في مذهبها الديني ، وفي نظامها السياسي .

ولكن نحب هنا أن نؤكد على أن الوحدة التي نجح هؤلاء الرجال الثلاثة في تحقيقها بين مصر وبلاد الشام لم تسلم من الأخطار التي تهددتها في شكل الحملات الصليبية المتتابعة الهادفة إلى تأكيد سلطان أوربا الاستعماري على الأراضي المقدسة ، وللقضاء على قوة مصر التي حملت العبء الأكبر في مقاومة هذه الحملات الصليبية الاستعمارية

لقد كان لاتحاد القوى في مصر وبلاد الشام ، برغم بعض المنازعات الداخلية ، فضل كبير في فشل هذه الحملات التي لم تحقق من أهدافها المخطط لها سلفًا ، عندئذ ، إلا القليل .

(1) الإحياء العلمي

عندما نتحدث عن الحياة العلمية في هذه الحقبة ، يحسن بنا أن نبدأ بما ذكره الرحالة الأندلسي / ابن جُبير (540 هـ - 614 هـ) في كتابه (رحلة ابن جُبير) ، من أنه رأى في دمشق السورية وحدها أثناء زيارته لها ، نحو 20 مدرسة ، كما رأى في حلب خمس مدارس .

نقول : إن ابن جُبير قام برحلات ثلاث من الأندلس إلى المشرق : الأولى سنة 578 هـ ، وهي التي كتب بعدها (الرحلة) ، والثانية بين سنتي 585 هـ و 587 هـ ، وفي الثالثة استقر بمدينة الإسكندرية ، حيث توفى سنة 614 هـ

ويذكر لنا ابن الشحنة الحلبي الحنفي (749 هـ - 851 هـ) ، في كتابه (الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب) من مدارس حلب عددًا يجاوز الخمسين ، أنشئت جميعًا بين سنتي 516 هـ و 565 هـ ، ودمشق وحلب كانتا العاصمتان الرئيسيتان لبلاد الشام في هذه الحقبة من التاريخ .

وما سبق يكفي في الدلالة على مدى الاهتمام بالإحياء العلمي في هذا العصر الذي نتناوله بالكتابة ، غير أنه يحسن أن نضيف إلى هذا أن عددًا كبيرًا من الزوايا والمساجد كانا يؤدي وظيفة المدرسة في هذا العصر على نطاق واسع .

أعود بك إلى ابن جُبير في (الرحلة) ، لنستمع إليه وهو يقول : وبالجامع المكرم (يقصد دمشق) ، عدة زوايا يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام الناس [الرحلة ، ص 266] .

ويقول أيضًا: ودهليز الباب الشمالي فيه زوايا على مصاطب هي محاضر لمعلمي الصبية [الرحلة ، ص 771] .

ويقول : وفيه حلقات للتدريس للطلبة ، وللمدرسين فيه أجراء واسع [الرحلة ، ص 773] .

ونشير إلى أن النسخة التي اعتمدنا عليها من رحلة ابن جُبير ، هي النسخة المطبوعة في ليدن الهولندية سنة 1907 م ، ورغم قدم هذه الطبعة إلا أنها تعد من أدق وأصح طبعات رحلة ابن جُبير .

نعود فنقول : لقد أنشئت أول مدرسة في دمشق على عهد الأتابك (طغتكين) الذي تولى إمارتها سنة 494 هـ ، لكن دمشق لم تفز بالشهرة الفائقة التي اكتسبتها في ميدان النشاط العلمي والثقافي والفكري إلا منذ عهد السلطان / نور الدين محمود زنكي ، الذي اتخذها عاصمة لملكه سنة 549 هـ .

ولعل السر في هذا أن المدة التي انقضت بين تأسيس أول مدرسة بدمشق واستيلاء نور الدين محمود عليها ، حفلت بالنزاع المتصل بين أمراء المسلمين ببلاد الشام ، أو بينهم وبين الفرنج والصليبيين ، وهو النزاع المرير الذي لم يدع فرصة لأي نوع من الإصلاح العلمي أو الاجتماعي رغم توفر النية لدى بعض الأمراء ، ولكن صدق من قال أن الطريق إلى جهنم محفوف بحسن النية .

(2) المدارس : تنوعها وانتشارها

الذي يهمنا في هذه الصفحات أن نتحدث عن النشاط العلمي والثقافي في الفترة التي نحن بصددها ، وعليه فإنه من المنطقي أن نتأمل العوامل التي أدت إلى ازدهار هذا النشاط العلمي ، وبالطبع من أهم هذه العوامل كثرة المدارس وتنوعها وانتشارها .

نقول : المدرسة مركز مهم للنشاط العلمي بوجه عام ، وفي الفترة التي نتحدث عنها كانت بمثابة مركزًا علميًا للنشاط العلمي السني ، وبالطبع هي تدين بوجودها لأسرة السلاجقة ، ومن المسلم به أن المدرسة ظهرت في صور مختلفة قبل ظهور السلاجقة بزمن في منطقة خراسان ، وفي غيرها من الأقاليم الشرقية .

يقول المقريزي (766 هـ- 845 هـ) في كتابه (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) : لم تكن المدارس معروفة زمن الصحابة ولا التابعين ، وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة ، فأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة أهل نيسابور ، فبنيت بها المدرسة البيهقية [الخطط ، 2/ 363] .

ويقول لنا التاريخ : إن أول من أنشأ المدرسة بنظامها الكامل الذي عُرفت به في بلاد العراق والشام ومصر كان نظام الملك وزير السلاجقة ، المتوفى سنة (485 هـ) ، وهو مؤسس المدارس النظامية المعروفة ، هذا ، وقد ذكرت لك من قبل أن أول مدرسة أنشئت في دمشق السورية سنة 497 هـ .

يقول المقريزي : وأول مدرسة قرر بها للعلماء معاليم هي النظامية ، وقد تم بناؤها سنة 459 هـ [الخطط ، 2/ 363] .

وكما يقول ابن الشحنة في كتابه (الدر المنتخب) : إن أول مدرسة بنيت بحلب سنة 516 هـ ، وعلى حائطها تاريخ سنة 517 هـ ، وتسمى بالزجاجية ، بناها بدر الدولة أبو الربيع / سليمان بن عبد الجبار صاحب حلب عندئذ ، ولما أراد بناءها لم يمكنه أهلها أول الأمر ، لأن الغالب عليهم حينئذ كان التشيع [ابن الشُحنة ، الدر المنتخب]

***

استقراء التاريخ يقول لنا : إن ظهور المدارس بكثرة كان بمثابة رد الفعل لتدهور الدعاية الشيعية ، وإليك تفصيل ذلك : لم يكن ظهور المدارس في مصر والشام بهذه الكثرة الملحوظة في العصر الذي نتحدث عنه إلا مظهرًا من مظاهر رد الفعل لتدهور الدعاية الشيعية الإسماعيلية التي فقدت سيطرتها أولاً في بلاد الشام ، لانحسار سلطة الفاطميين عنها ، ثم انهارت في مصر بعد سقوط خلافتها الفاطمية أمام جيوش الفتح النوري (نور الدين محمود زنكي) ، ثم من بعده ، بجهود الشاب الطموح / صلاح الدين الأيوبي .

وإذا قمنا بعملية استعراض تفصيلي للمواد أو العلوم التي كانت تدر في هذه المدارس ، لن نعدم الدليل على صحة هذه الدعوى التي ذهبنا إليها .

إن مواد الدراسة في هذه الحقبة كانت تختلف من مدرسة إلى أخرى ، تبعًا لاختلاف أعمار الطلاب من جهة ولاختلاف المذاهب التي أنشئت من أجلها ، ولكنها مع هذا كانت تتفق جمعاء في أمر واحد هو تجنب الدراسة الفلسفية والمنطقية ، ولعل ذلك يرجع إلى أن المذهب الشيعي الإسماعيلي بصفة عامة يعتمد في دعايته ، السرية والعلنية ، إلى جانب العاطفة الروحية ، على الجدل المنطقي ، وعلى الأسس الفلسفية والرياضية إلى حد كبير .

وعليه : كانت المواد أو العلوم التي تدرس في معظم مدارس الشام ومصر في العصر الذي نتعرض له عبر هذه الصفحات تتركز حول : القرآن الكريم ، والحديث النبوي المطهر ، والمذاهب الفقهية الرئيسة الأربعة .

ولنا ملاحظة ألا وهي : لقد كان اختلاف هذه المذاهب في بعض المسائل الفرعية سببًا في تجميع هذه المسائل الخلافية في دراسات خاصة ، عُرفت باسم (علم الخلاف) ، وقد برع فيها كثير من علماء هذا العصر ، وبخاصة من علماء الشافعية .

وفي رحلة (ابن جُبير) ، وفي غيرها ، نجد حديثًا عن المدارس التي أنشئت للصبيان خاصة ، ويسميها ابن جُبير بالمكاتب (الكتاتيب) ، وهدف هذه المدارس أن يحفظ بها الصبيان القرآن الكريم ، تلقينًا ، أما القراءة والكتابة فكانت تعلم للصبيان في دراسة الشعر و الأدب التي كانت تعتبر في هذه المرحلة مواد مساعدة .

ونقول هنا : إنما كان القرآن الكريم يعلم تلقينًا صيانة له عن التحريف ، والتصحيف ، وكان الأهالي بوجه عام يحرصون على إلحاق أبنائهم بهذه الكتاتيب أو التي تعادل في عصرنا المدارس الابتدائية .

وكانت المساجد وهي من أماكن التعليم أيضًا ، كما يقول ابن جُبير ، مكانًا آخر لتعليم القرآن الكريم لهؤلاء الصبيان الذين كانوا يفدون إلى المساجد لهذا الغرض ، وكان لهؤلاء التلاميذ ، ولمقرئيهم مرتبات خاصة يستحقونها في مقابل تدريس القرآن الكريم ودراسته .

وها هنا ابن جُبير يقول لنا : وعند فراغ المجتمع من القراءة صباحًا يستند كل إنسان منهم إلى سارية ، ويجلس أمامه صبي يلقنه القرآن ، وللصبيان على قرائهم جراية معلومة ، وأهل القدرة من الآباء ينزهون أبناءهم عن أخذها

ويضيف : وتعليم القرآن الصبيان تلقين ويعلمون الخط في الأشعار ونحوها [الرحلة ، ص 273] .

وكانت دراسة القراءات المختلفة للقرآن الكريم تأتي في المرحلة التالية من الأهمية بالنسبة لحفظه ، حتى أن كثيرًا من العلماء اشتهروا بين رجال هذا العصر بإتقانهم لهذه القراءات ، ومن بين هؤلاء الشيخ / علم الدين السخاوي ، المتوفى سنة 643 هـ ، الذي اشتهر بإجادته للعديد من القراءات القرآنية ، حتى أن الناس كانوا يتجمعون حوله ليقرؤا عليه القرآن الكريم عليه بقراءته في المسجد ، وفي الطريق بينه وبين منزله بسفح جبل قاسيون ، فلا يصح لأحد منهم نوبة إلا بعد أمد طويل ، وفقًا لما ذكره ابن خلكان في كتابه [وفيات الأعيان ، 1 / 434 - 435] .

وفي كتب التراجم التي تتحدث عن الشخصيات العلمية لهذا العصر نقرأ عن الكثير من أمثال الشيخ / علم الدين السخاوي .

هذا ، ويجيء بعد القرآن الكريم وقراءاته علم الحديث النبوي الشريف ، ورجاله ، وقد ظفر هذا العلم بمؤسسات خاصة أخذ كل منها اسم (دار الحديث) تميزًا لها من باقية المدارس ، وأول دار للحديث أنشئت في دمشق أسسها السلطان / نور الدين محمود زنكي ، ثم تبع من جاء بعده مثاله ، ومن هؤلاء صلاح الدين الأيوبي ، والملك الكامل محمد ، والملك الأشرف موسى ، والملك الصالح نجم الدين أيوب .

ويلي هاتين المادتين الرئيسيتين في الأهمية الدراسات الفقهية بمذاهبها الأربعة الرئيسية ، أما بالنسبة لقواعد اللغة العربية والدراسات الأدبية والتاريخية فلم تكن إلا مواد من المواد المساعدة التي تمهد للدراسات الدينية العميقة والتي تتمثل في دراسة القرآن الكريم وقراءاته ، والحديث النبوي ورجاله ، ثم في دراسة الفقه ومسائل الخلاف .

ومن بين المذاهب الفقهية الأربعة يحتل مذهب الإمام / الشافعي مكان الصدارة ، وبخاصة في عصر الأيوبيين ، وذلك رغم أن نور الدين محمودًا ، الذي بدأ الاهتمام الجدي بالنشاط العلمي السني ، كان يعتنق مذهب الحنفية .

وفي تتبعنا للنشاط العلمي الذي اتخذ طريقه من بلاد الشام إلى مصر في أواخر عهد نور الدين محمود زنكي ، نجده يصطبغ بالصبغة الشافعية ، فقد أصدر صلاح الدين الأيوبي قراره بعزل جميع قضاة الشيعة بعد سقوط الدولة الفاطمية مباشرة ، وعين الشيخ / صدر الدين عبد الله بن درباس الشافعي في منصب قاضي القضاة ، وعين هذا الشيخ بدوره نوابه في الأقسام الإدارية بمصر من رجال الفقه الشافعي .

وفي هذا يقول المقريزي في خططه : فلم يستتنب عنه في أقاليم مصر إلا من كان شافعي أي المذهب ، فتظاهر الناس من حينئذ بمذهب الشافعي ومالك [الخطط ، 2/ 343] .

ثم لم يلبث صلاح الدين أن اتخذ خطوة أخرى في هذا الصدد عندما أسس مدرسة كبرى للشافعية بجوار قبة الإمام / الشافعي ، وأتبعها بأخوات لها في جهات أخرى ، ومن ثم لم يكن في الدولة الأيوبية بمصر كثير ذكر لمذهب الإمام / أبي حنيفة النعمان ، والإمام / أحمد بن حنبل [الخطط ، 2/ 343] .

ومنذ بدأ الاهتمام في بلاد الشام بإنشاء المدارس في عهد نور الدين محمود زنكي ، أقبل أصحابه وأمراء جيشه على التنافس في إنشائها ، وتابعهم على ذلك أصحاب الشام ومصر ، ومن اتصل بهم ، في عصر الدولة الأيوبية ، وكأن لسان الحال يقول : الناس على دين ملوكهم !! .

وكانت هذه المدارس موزعة بين المذاهب الفقهية الرئيسية ، وإن اختلف الإقبال عليها من مذهب إلى آخر ، فكان مذهب الشافعي في مرتبة الصدارة ، يليه مذهب أبي حنيفة ، ثم المذهب المالكي ، بينما كان يحتل مذهب أحمد بن حنبل المكانة الأخيرة ، إذ لم يقبل كثير من السلاطين أو الأمراء أو العلماء أو المتعلمين على تشجيعه بدرجة كافية ، بل كان بعضهم يقاوم انتشاره ونشاط علمائه ، ويؤيد أتباع المدرسة الشافعية في معاداتهم له .

ولعل السر في هذا أن رجال المذهب الحنبلي كانوا يحاولون في هذه الفترة النظرة إلى المسائل الشرعية نظرة تحليلية تعليلية ويردون شبهات المناظرين من المناطقة بحجج جدلية مشابهة تمشيًا معهم في أسلوب مناظرتهم ، بينما كان الشافعية ، بزعامة إمامهم الأكبر / ابن عساكر المحدث ، يلجأون إلى الحديث دائمًا ، ويشككون في عقيدة الحنابلة وفي مقاصدهم .

ويمكن القول أن السر في تقدم الشافعية على الحنفية كذلك أن نور الدين محمود الحنفي المذهب وقف من المذاهب الأربعة موقفًا محايدًا ، وشجع العلماء جميعًا على مواصلة جهودهم العلمية ، ووجه كثيرًا من جهده وماله لدراسة الحديث النبوي الشريف خاصة ، فأنشأ له مدرسة خاصة عرفت باسم دار الحديث النورية ، كما قدم ابن عساكر المحدث الشافعي الكبير في مجلسه على سائر الأمراء والعلماء ، حتى كان ابن عساكر يضرب المثل بجلال مجلس نور الدين زنكي ووقاره وتعظيمه للعلم والعلماء .

ثم جاء بعد نور الدين خلفاؤه الذين حكموا مصر وبلاد الشام باسم الأمراء الأيوبيين ، ومعظمهم من الشافعية المتعصبين لمذهبهم ، وفي مقدمة هؤلاء صلاح الدين الأيوبي ، وأخوه الملك العادل / سيف الدين ، ثم الملك الكامل / موسى بن الملك العادل .

ومما يدل على موقف الأيوبيين من المذهب الشافعي تأيدًا مناصرة أن أحد علماء الحنفية كتب كتابًا في الفقه سماه (النوري في شرح القدوري) ، وتعرض فيه لبعض رجال الحديث من الشافعية ، وبلغ خبر الكتاب صلاح الدين الأيوبي فاستدعى مؤلفه يوم الجمعة في مسجد دمشق وطلب منه كتابه ، وأمر بغسله في ميضأة المسجد !!!

ومؤلف هذا الكتاب هو الشيخ / ابن أبي اليعيش ، كما ذكر صاحب (البستان الجامع بتواريخ الزمان) ، في حوادث سنة 578 هـ .

و دليل آخر أن المعظم عيسى صاحب دمشق ، ابن الملك العادل / سيف الدين ، اعتنق المذهب الحنفي واهتم بدراسته والتخصص فيه ، فبلغ أمره والده ، الذي حاول أن يسترده إلى مذهب الشافعي ، فغضب المعظم وكلم أباه ، ومن حضر مجلسه من العلماء بلهجة يتحدث أبو المحاسن : ابن تغري بردي ، في كتابه (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) عنها بقوله : بأن السكوت عن ذكرها أليق !! [النجوم الزاهرة ، 6/ 211] .

وذكر أحمد بن إبراهيم بن نصر الله الحنبلي القاهري ، المتوفى سنة 876 هـ ، مؤلف كتاب (شفاء القلوب) أن ما قاله المعظم عيسى صاحب دمشق لأبيه الملك العادل حينئذ هو : أما ترضون فيكم واحد مسلم ؟ ! .

ومما يدل على أن مذهب الإمام / أحمد بن حنبل كان لا يجد تعضيدًا كافيًا من الحكوميين والرسميين أو من العلماء أن أبا شامه صاحب كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية) مدح أستاذه زين الأمناء المحدث / ابن عساكر ، بأنه كان لا يمر قرب صفوف الحنابلة حتى لا يأثموا بسبهم له !!!

ويعلل أبو شامه هذا صراحة بالبغض العنيف الذي يكنه الحنابلة للشافعية ، ذلك البغض الذي كان متبادلاً بين الفريقين ، حتى أن زكي الدين بن رواحة أنشأ مدرستين في حلب ودمشق وأباح الدراسة فيها لكل من رغب الاستزادة في العلم على : ألا يدخلها مسيحي أو يهودي أو حنبلي !! ، وفقًا لما ورد في كتاب (الوافي بالوفيات) للصفدي .

ولكن سيطرة الشافعية والحنفية على الحياة العلمية لم يمنعا تطور مذهبي المالكية والحنبلية ، بل شجعتهما هذه السيطرة على المناضلة والمقاومة لمحاولة التقدم والرقي ، فنجحا إلى حد كبير ، وأمكنهما بذلك تقنين بعض قواعد الفقه الإسلامي المتعلقة بنظم الحكم السياسية فيما بعد ، وبخاصة جهود الفقيه والمصلح الاجتماعي الإمام / ابن تيمية الحراني ، وفي هذا الصدد يمكن للقارئ الكريم أن يراجع الدراسة المهمة التي كتبها الفرنسي (لاوست) ، عن ابن تيمية وأطروحاته الاجتماعية والسياسية ، والتي صدرت في باريس ، سنة 1939 م .

وأحب أن أشير هنا إلى أنني تناولت في كتابي المعنون بـ (مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات) والذي صدر ضمن سلسلة (تاريخ المصريين) ، سنة 2000 م عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ، وشرفت أن يكتب لي مقدمته أستاذنا الدكتور / عبد العظيم رمضان (عليه رحمة الله) ، في هذا الكتاب أكدت على ما يجره أو جره الخلاف المذهبي أو الديني بين الفرق الإسلامية على البلاد والعباد ، حيث أن هذا التطاحن قد سبب ومازال يسبب الكثير من الويلات والمصائب لأمتنا العربية والإسلامية (ص 43 وما بعدها من الكتاب المشار إليه) .

وكان لدراسة الطب في هذه المرحلة نصيب ملحوظ ، حيث كان الطلاب ينقلون دروسه النظرية ويقومون بتمريناتهم العملية في البيمارستانات حيث كان المرضى يعالجون بالمجان ، وكان البيمارستان النوري بدمشق السورية في مقدمة هذه المؤسسات الصحية العلمية نشاطًا في هذه الحقبة ، ومن بعده بيمارستان صرخد (مدينة ملاصقة لحوران جنوب مدينة السويداء السورية) ، ثم بيمارستان القاهرة ، ومن أظهر أطباء هذا العصر ابن أبي أصيبعة الذي تلقى دراسته العامة في صرخد والقاهرة ، وترك كتابًا خاصًا في طبقات الأطباء سماه (عيون الأنباء) .

(3) الهيئة الحاكمة ودورها في الحياة العلمية

يمكن لنا القول بأن هذا النشاط العلمي في تلك الفترة التي نحدثك عنها يدين بوجوده لعوامل ثلاثة متعاونة :

أولها : كثرة المدارس وتنوعها .

وثانيها : الهيئة الحاكمة من سلاطين وأمراء وأتباع للأمراء ، وسيدات الأسر الحاكمة .

وثالثها : جماعة العلماء .

وقد حدثناك من قبل عن العامل الأول ، أما العامل الثاني فإننا نجد أن رجال الحكم والسلطة ومن اتصل بهم ، كانوا يتنافسون في إنشاء المدارس بأنواعها المختلفة ، وبعضهم كان يبادر إلى هذا فور توليه منصبه الجديد ، يجعله عربونًا لدى قومه على حُسن السياسة التي سيتبعها في إدارة شئونهم ورعاية صوالحهم ومصالحهم .

و لسيدات هذا العصر فضل كبير في تأسيس الكثير من المدارس ، ونذكر منهم على سبيل المثال ، الخاتون / عصمة الدين زوجة السلطان / نور الدين محمود زنكي ، ثم من بعده ، زوجة السلطان / صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وقد أنشأت مدرسة فخمة في دمشق عرفت باسم المدرسة العصمية .

ومن أتباع السلاطين نذكر قايماز صايم الدين ، أحد مماليك السلطان / صلاح الدين ، الذي أنشأ مدرسة باسمه تقع بجوار منزله ، كما أنشأ عدة رُبط للصوفية في دمشق السورية وغيرها من مدن بلاد الشام .

ومن العلماء نذكر القاضي / شرف الدين بن أبي عصرون الذي أنشأ مدرسة باسمه تواجه منزله بدمشق أيضًا ، كما نذكر القاضي الفاضل / عبد الرحيم البيساني ، الذي أنشأ مدرسة كبرى في القاهرة للشافعية والمالكية ، وألحق بها مكتبة بلغت عدة كتبها مائة ألف كتاب ، ويبدو أنها لاقت شهرة كبيرة بين طلاب العلم في تلك الآونة .

وفي كتاب (الدارس في تاريخ المدارس) للنعيمي ، وفي كتب التراجم التي كتبت عن هذا العصر الذي نتحاور حوله ، أمثلة لا تحصى للتدليل على هذه القضية .

ولم يقتصر اهتمام الهيئة الحاكمة أو أهل الحل والعقد في تلك الفترة ، ومن اتصل بهم ، بحركة الإحياء العلمي على مجرد أنشاء المدارس ، وإنما كانوا يتخيرون لهذه المدارس أفضل الأساتذة وأبقاهم وأكثرهم قبولاً لدى المتعلمين .

ونذكر هنا أن بعض المدارس كانت تنشأ من أجل عالم بعينه اشتهر بعلمه أو بمكانته بين الناس ومحبي العلم ، فقد أنشأ ناصر الدين القيمري مدرسة خاصة للأستاذ / علي بن محمود الكردي ، وقرر عند إنشائها أن يتولى شئونها بعد وفاة الشيخ الكردي أولاده وذريته .

ومن قبل أنشأن السلطان / نور الدين محمود زنكي دار الحديث النورية للحافظ أبي القاسم هبة الله بن عساكر محدث دمشق ، والذي توفى سنة 571 هـ .

وإنشاء مدرسة ما كان يعني في نفس الوقت تخصيص أوقاف بعينها بصرف إيرادها في إدارة هذه المدرسة ، وفي دفع مرتبات المدرسين والمعيدين والعاملين بها ، وكذلك في حاجات الطلاب الذين كانوا في أغلب الأحيان يقيمون بالمدرسة ، ويتغذون فيها ويحصلون منها على أدوات الكتابة والدرس ، بل كان من بين العلماء والطلبة من يتزوج ويقيم مع زوجه وأسرته في المدرسة التي التحق بها مدرسًا أو طالبًا .

ومما يدل على وفرة الأوقاف المخصصة للمدارس ، ما ذكره الرحالة أبن جُبير في الرحلة عن مدينة دمشق التي استغرقت الأوقاف معظم أسواقها ومنشآتها ، وتوزعتها المساجد والمدارس والرُبط .

وها هو يصف ـ ابن جُبير ـ يصف إحدى المدارس الحنفية بمدينة حلب ، حيث يقول لنا : إنه يتصل به أي بجامع قلعة حلب ، من الجانب الغربي مدرسة للحنفية تناسب الجامع حُسنًا وإتقان صنعة ، فيها في الحُسن روضه تجاور أخرى ، وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناءً وغرابة صنعة ، ومن أطرف ما يلحظ فيها أن جدارها القبلي مفتح كله ، له طيقان يتصل بعضها ببعض ، وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر عنبًا ، فحصل لكل من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدليًا أمامها ، فيمد الساكن فيها يده ، ويجتنيه متكئًا دون كُلفة ولا مشقة [الرحلة ، ص 253] .

ولم يقتصر مورد هذه المدارس على الأوقاف الكثيرة التي كانت تخصص لها ، بل كان للعلماء إقطاعات خاصة يمنحها لهم الأمراء ومرتبات تصرف لهم من خزانة الدولة .

وها هو الوزير الأديب / القاضي الفاضل (الذراع الأيمن لصلاح الدين الأيوبي) ، يذكر لنا في إحدى رسائله التي كتبها إلى صلاح الدين : أن أرزاق أرباب العمائم في دولته ، إقطاعًا وراتبًا ، يتجاوز مائتي ألف دينار ، وربما وصل ثلثمائة ألف شهادة لله .

وما سبق اقتبستاه من كتاب بعنوان (عيون الروضتين) لأبي شامه ، وهو غير كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية) ، والذي حققه أستاذنا المرحوم الدكتور/ محمد حلمي أحمد ، ووفقًا لمعلومات كاتب هذه السطور المتواضعة فإن (عيون الروضتين) مازال مخطوطًا ولم يتم تحقيقه حتى الآن ، ومنه نسخة جيدة محفوظة بالمتحف البريطاني في لندن .

وأحب أن أشير هنا بالنسبة لموضوع تخصيص الأوقاف الغنية للإنفاق على المدارس وإدارتها وتلاميذها ، أن للباحث دراسة موسعة عنوانها (دور بعض الأوقاف الإسلامية القديمة في النهضة التربوية والثقافية) ، وقد تم نشرها في فبراير 2009 ، بمجلة (الأوقاف) الصادرة عن وزارة الأوقاف بدولة الكويت ، فليعد إليها من أراد لتعم الفائدة بإذن الله تعالى .

أقول لكم : إنه من مظاهر اهتمام الهيئة الحاكمة للنشاط العلمي ما نقرؤه من أن السلاطين أنفسهم كانوا يهتمون بالأخذ بنصيب من الثقافة والعلم والمعرفة ، بقدر ما تسمح ظروفهم .

وها هو صلاح الدين الأيوبي يتلقى دروس الحديث النبوي الشريف من بهاء الدين بن شداد ، صاحب كتاب (سيرة صلاح الدين) المسمى (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية) ، في ميدان القتال .

كما حاول صلاح الدين أن يحفظ القرآن الكريم عندما وجد فسحة من الوقت ، وبدأ هذا فعلاً ، ولكننا لا نعلم مقدار نجاح هذه المحاولة .

وفي الإسكندرية اعتاد صلاح الدين أن يحضر دروس أولاده حيث أوكل تعليمهم إلى صفوة مختارة من أهل العلم في عصره ، وقد قالوا : إن ابنه الكامل استطاع أن يحصل على إجازات علمية كثيرة من علماء عصره عن جدارة واستحقاق .

كما قيل أن : الكامل نفسه استطاع أن يعلق على صحيح الإمام / مسلم تعليقات علمية مشهود لها أو بتعبير آخر علق عليها بكلام مليح .

والكامل هذا هو الذي اعتاد أن يعقد ندوة علمية دورية مساء كل خميس يتناظر فيها العلماء ويتجادلون فيها ، ويشاركهم الكامل في جدلهم ومناظراتهم .

ونقرأ أن الملك الكامل أخذ في أسباب بناء مدرسته الكاملية التي في حي بين القصرين ، وكانت تسمى دار الحديث ، وذكروا أيضًا أنه لما حفروا أساس هذه المدرسة وجدوا صنمًا كبيرًا من ذهب ، فأمر الملك الكامل بأن يسبك ذلك الصنم وينفق على بناء هذه المدرسة .

والكامل هو الذي أنشأ هذه القبة العظيمة على ضريح الإمام / الشافعي (رضي الله عنه) ، وبنى المجراة من بركة الحبش إلى تربة الإمام الشافعي تجري بالماء في أيام النيل ، ويبدو أن المجراة ظلت موجودة إلى أيام ابن إياس ، حيث ذكرها في كتابه (تاريخ مصر) والمعروف لنا بـ (بدائع الزهور في وقائع الدهور) .

كما بني الكامل الحوض على الطريق السالكة عند تربة الإمام الشافعي ، ولما ماتت أم الكامل دفنت عند الإمام الشافعي داخل القبة .

ويمكن لنا في هذه الجزئية مراجعة ما ذكره ابن تغري بردي صاحب كتاب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) ، الجزء السادس منه ، الصفحات 227 - 232 .

أما المعظم عيسى صاحب دمشق ، وشقيق الملك الكامل ، فقد درس الفقه على مذهب الإمام / أبي حنيفة النعمان في عناية وعمق ، والتاريخ يذكر لنا رده على والده الملك العادل شقيق صلاح الدين الأيوبي ، حينما حاول أن يصرفه إلى دراسة الفقه الشافعي .

وفي كتاب (مرآة الزمان) لسبط ابن الجوزي ، نقرأ أن المعظم عيسى هذا اختار مجموعة من العلماء وكلفهم بدراسة مسائل الفقه الحنفي ، لإفراد القضايا التي اختص بها الإمام / أبو حنيفة ، وتلك التي تنسب إلى كل من صاحبيه : محمد وأبي يوسف .

وفي واقع الأمر فإن نتيجة هذه المحاولة كانت كتابًا جديدًا مهمًا في الفقه الحنفي ، سمي كتاب (التذكرة) ، ويقع في عشر مجلدات ، المعظم عيسى درس هذا الكتاب بعناية فائقة ، وكتب بخط يده على كل مجلد منه عبارة تدل على أنه حفظ ما فيه جميعه ، ولعل ذلك قد لفت نظر العلامة (سبط ابن الجوزي) ، فقال للمعظم عيسى : إن أعظم العلماء حفظًا لا يستطيع أن يدعي أنه حفظ أكثر من كتاب (القدوري) ، وأنت تذكر أنك حفظت كتاب (التذكرة) جميعه ، إنني أخشى أن يؤخذ هذا عليك ؟ !! .

هنا تحداه المعظم عيسى أن يجمع له من أراد من العلماء ليختبروا حفظه لهذا الكتاب ، وقال : إن الألفاظ لا تهم ، وإنما الذي يهم هو ما تعنيه هذه الألفاظ .

ونقرأ أيضًا أن المعظم عيسى اهتم اهتمامًا كبيرًا بقواعد اللغة العربية ، فحفظ كتاب (المفصل) للزمخشري ، وكان يشجع الشباب والناشئة ومحب العلم على الحفظ والدراسة ، محفزًا إياهم بالمكافآت المالية السخية .

وقد ورد عنه قوله : من حفظ كتاب (الجامع الكبير) للكرماني أعطيته مائة دينار ، ومن حفظ الإفصاح لأبي علي في النحو أعطيته مائتينن ، [سبط ابن الجوزي ، مختصر مرآة الزمان ، ص ص 426 - 427] .

ويقال : أن جماعة قامت بحفظ الكتابين ، فوفى لهم بوعده وأكرمهم أحسن الإكرام ، وعندما كتب سبط ابن الجوزي ترجمة المعظم عيسى في حوادث سنة 624 هـ ، قال وفي هذه السنة ظهرت وفاة المعظم عيسى الملك الفقيه النحوي اللغوي ... إلخ ..

ولأمراء الأيوبيين نشاط آخر في ميدان المعرفة ذلكم هو التأليف والتصنيف ، فقد كتب المعظم عيسى كتابًا مهمًا في الفقه الحنفي ، كما نظم مجموعة من الأشعار التي لا بأس بها ، جمعها في ديوان خاص .

كما ألف الناصر داود كتاب (الفوائد الحلبية في الفوائد الناصرية) ، وخصص فيه فصلاً تحدث فيه عن أصل الأسرة الأيوبية ، وينقسم هذا الكتاب إلى قسمين ، أولهما :

يشمل الرسائل والمكاتبات التي وجهها الناصر داود إلى بعض الشخصيات الرسمية وغيرها في عصره .

وثانيهما :

يحتوي مجموعة من الأشعار التي أنشأها الناصر ، حيث يقال إنه كان محبًا للشعر ، ويكتبه ، وجاء هذا القسم في عشرة أبواب .

ويجدر بالذكر هنا أن كتاب الناصر الأيوبي هذا ، مازال مخطوطًا ، محفوظًا بالمتحف البريطاني في لندن ، تحت رقم 3027 ، وهو كمخطوط بحالة جيدة .

وكتب المنصور محمد صاحب حماه كتابًا عن تاريخ مدينة حماه ، والشخصيات التي زارتها أو استقرت فيها ، و يقع هذا الكتاب في جزأين ، وقد سماه صاحبه (المضمار في التواريخ) ، وقد ذكره لنا أبو شامه في (المزيل على الروضتين ، ص 124) ، كما ذكره سبط ابن الجوزي في كتابه (مختصر مرآة الزمان ، ص ص 401 - 402) .

ونذكر هنا أبو الفدا ، إسماعيل بن علي بن محمود ، صاحب كتاب (تقويم البلدان) ، واسمه بالكامل السلطان الملك المؤيد صاحب حماه ، إسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين علي ، ابن جمال الدين محمود ، بن المنصور محمد ، بن المظفر تقي الدين عمر ، بن نور الدين شاهنشاه ، بن نجم الدين أيوب .

والذي ولد بمدينة دمشق في سنة 672 هـ ، وتوفي في سنة 732 هـ ، ودفن بمدينة حماه ، وهذا الأمير لم تحل حركته الدائمة كأمير وفارس ومحارب دون اشتغاله بالكتابة والتأليف ، فترك كتبًا نفيسة أهمها (المختصر في أخبار البشر) في التاريخ ، وكتاب (تقويم البلدان) في علم الجغرافيا ، والذي فرغ من تأليفه حوالي 731 هـ ، ومنه مخطوطة محفوظة بمكتبة ليدن الهولندية ، راجعها المؤلف بنفسه ، وقد تم طبع هذا الكتاب في دار الطباعة السلطانية التركية ، سنة 1840 م = 1256 هـ ، بتصحيح ونشر م . رينو ، و ماك جوكين دي سلان ، ويقع الكتاب في 359 صفحة ، وتتصدره مقدمة تقع في 47 صفحة .

وهكذا نجد أمراء الأيوبيين يسهمون في حركة الإحياء العلمي بطريق مباشر بالتأليف والدراسة ، يضاف إلى ذلك اهتمامهم الكبير والمباشر بالتأليف والدراسة ، وبوجه عام اهتمامهم بالنهضة العلمية والثقافية في مصر والشام خلال عصرهم .

(4) العلماء ودورهم الإداري والجماهيري والقيادي

العامل المهم الذي نقف أمامه في هذا المبحث ، ويرجع إليه الفضل في الحركة الإحيائية للعلوم والثقافة وفقًا لمفهوم عصرنا ، هذا العامل هو جماعة العلماء ، أو قل النخبة من أهل الثقافة والفكر والعلم والأدب .

وهذا ليس بمستغرب لأنه من الطبيعي جدًا أن تؤدي الجهود الإيجابية التي قامت بها الهيئة الحاكمة أو الحكومة في تلك الفترة التي نحن بصددها ، وكذلك من اتصل بها من قريب أو بعيد ، وهذه الجهود تمثلت في إنشاء العديد من المدارس ، وتخصيص الأوقاف السخية للإنفاق عليها ، وعلى طلابها ومعلميها وإدارييها والقائمين عليها بوجه عام

نضيف إلى ذلك تشجيع الدراسات بوسائل مختلفة ، والثقافة الذي كان عليها أمراء الأسرة الحاكمة أو أهل الحل والعقد ، وكذلك مساهمتهم في حركة التأليف أو البحث العلمي بلغة عصرنا .

أقول لك : كل ذلك نراه أنه من الطبيعي أن يؤدي إلى تكوين هيئة ضخمة من العلماء والأساتذة لسد حاجة المدارس المتزايد إلى المدرسين والمُثْقفين ، وطبيعي كذلك أن تؤدي هذه الحركة التثقيفية الواسعة إلى تخرج عدد كبير من العلماء الذين سيقودون فيما بعد الحركة العلمية والتعليمية .

وإذا أردنا شاهدًا على ضخامة عدد هذه الهيئة التعليمية نقرأ عبارة ذكرها العماد الأصفهاني الكاتب ، في مناسبة معينة ، وهو يحدثنا عن مدينة دمشق ، وذلك في كتابه (الفتح القسي في الفتح القدسي ص ص 481 - 482) ، حيث قال : إن ما وزع من منح على أساتذة المدينة بلغ أكثر من ستمائة دينار ، فخص كل عالم دينار واحد .

وعماد الدين الأصفهاني (519 هـ - 597 هـ) ، الذي خص صلاح الدين بكتابين من مجموع مؤلفاته والتي تبلغ أحد عشر كتابًا ، وهما (البرق الشامي) و (الفتح القسي) ، درس بالمدرسة النورية بدمشق ، فذاع صيته ودخل في خدمة نور الدين ثم ابنه الصالح ، ولم يلبث أن دخل في خدمة صلاح الدين بإشارة من القاضي الفاضل سنة 570 هـ ، فلم ينقطع عن مصاحبة صلاح الدين ، حتى إذا مات 589 هـ ، اختلفت أحوال العماد ، فلزم بيته وأقبل على الاشتغال بالتصانيف حتى مات بدمشق .

والنسخة التي عندنا من كتاب (الفتح القسي) لعماد الدين الأصفهاني ، مطبوعة في مدينة ليدن ، لندبرج ، 1888م ، ونرى أنها من أدق الطبعات .

نعود لنؤكد على أن كتب التراجم والأعلام التي تتعرض للحقبة التاريخية التي نتحاور حولها في هذا البحث ، تدلنا على أن هذا العصر كان حافلاً بالشخصيات العلمية العظيمة في شتى مجالات العلم والمعرفة ، والتي كان يشار إليها بالبنان ، وتحظى بكل الاحترام والتقدير من كل الفئات في المجتمع .

ونتبين من الدراسة الدقيقة لهذا العصر أن الظروف التي سيطرت على جوه العام جعلت أساس الحكم فيه مستندًا إلى دعامتين قويتين متعاونتين ، وإن اختلفت طبيعة كل منهما عن الأخرى ، وإليك التفصيل :

الدعامة الأولى :

طبيعة الأمراء أو أمراء الإقطاع (الأرستقراطية) ، وفيهم تركز النشاط الحربي والتجاري ، وإدارة معظم شئون الإقطاعات والولايات المحلية ، وبالطبع كل ذلك في ضوء السياسة العامة للدولة .

وهذه الطبقة هي التي تمد خزينة الدولة أو الخزينة العامة للبلاد بما يفرض عليهم من أموال ، وواضح أن ذلك كان يتم بالتراضي التام ، في الأعم الأغلب ، دون تمرد أو عصيان أو رفض .

الدعامة الثانية :

وهي طبقة العلماء أو أهل الثقافة والعلم أو النخبة ، وهؤلاء لم يكونوا أقل أهمية للدولة من الأرستقراطيين أو القطاعيين أو الأمراء من مالكي الإقطاعيات ، وذلك أنهم بنفوذهم المباشر على الجماهير أو العامة ، أثروا بشكل فعال على الرأي العام الذي بدوره كان يقدرهم ويحترمهم ويستجيب لكل توجيهاتهم ، وعليه فقد استطاعوا بسهولة ويسر تعبئة القوى وتجميع الصفوف لتأييد الدولة أو لمناهضة الأمراء الذين ينحرفون عن جادة الصواب أو عن الطريق السوي في إدارة إماراتهم في أي مكان من الدولة .

وواقع الأمر يقول : إن دور العلماء لم يقتصر أثره في تحقيق استقرار الأمور في أرجاء البلاد وبين العباد ، أو التأثير في الرأي العام أو الجماهيري ، وإنما كان لبعض الشخصيات القوية منهم أثر مباشر في قوة الدولة وترسيخ نظامها وفرض هيبتها ، وذلك في مواجهة جبروت بعض السلاطين ، وطغيان بعض الأمراء .

فها هو القاضي / عيسى الهكاري يصحب جيوش أسد الدين شيركوه ، الذي شغل منصب الوزارة للفاطميين نحو شهرين ، ثم وقع الاختيار على ابن أخيه الشاب الطموح الذكي / صلاح الدين الأيوبي ليتولى الوزارة بعده ، في نفس الوقت الذي تقرر فيه أن يقود جيوش نور الدين محمود زنكي بمصر .

هنا غضب الكثير من قواد الجيش وأمرائه الذين كانوا أسن وأكثر خبرة ودراية بالشئون العسكرية ، وفي نفس الوقت كانوا أقدم في الدرجة أو الرتبة ، بل أقدم صلة بنور الدين محمود ، وأذكر لك من هؤلاء الثائرين بل من الذين كانوا في طليعتهم / شهاب الدين الحارمي ، وهو خال الوزير الجديد ، أي أنه خال صلاح الدين الأيوبي . هنا تقدم القاضي / الهكاري لعلاج الموقف المتأزم بحكمة وكياسة ولباقة وسياسة ، ونجح في جمع الكلمة حول القائد الشاب الطموح ، فتولى المنصبين جميعًا ، واكتفى من بقى على معارضته لصلاح الدين بالعودة إلى بلاد الشام في هدوء تام .

ويروي لنا التاريخ أيضًا ، أن القاضي / الهكاري واصل بعد ذلك جهوده المخلصة لخدمة صلاح الدين وصحبه في إدارة شئون مصر ، كما صحبه في المعارك التي خاضها حتى توفاه الله في إحدى القلاع المطلة على سواحل عكا الفلسطينية ، سنة 558 هـ .

ويذكر التاريخ الإمام / الفندلاوي الذي كان يتقدم الصفوف في قتال الصليبيين ، واستشهد في ميدان المعركة .

والشيخ / شرف الدين اليونيني الحنبلي (621 هـ - 701 هـ) الذي كان يخرج مع المجاهدين بقوسه الذي يزن ثمانين رطلاً ، ويقول المترجمون لحياته أنه لم يتخلف عن معركة واحدة .

وهناك أمثلة عديدة تحفل بها صفحات التاريخ في تلك الفترة لتؤكد لنا على الدور الذي يجب أن يقوم به المثقف العضوي أو قل المثقف العامل الإيجابي ، الذي لا يكتفي بالثرثرة الفارغة التافهة والاعتراض لمجرد الاعتراض ، وكأنه خلق ليعترض فقط لا غير ، دون أن يقدم شيئًا له قيمة لمجتمعه أو لأمته ، ودون أن يجتهد من أجل أن يرتقي وينهض بشعبه ، وفي الواقع أن ذلك لا يليق ولا يصح من صفوة الأمة ، أو كما يفترض أن يكونوا ، ويؤلمنا أن نجد من يؤكد على أن هذه النخبة هي سبب البلاء والانحدار لهذه الأمة ، نأمل في الصلاح والإصلاح ، كما نأمل أن يعرف أهل العلم والثقافة دورهم في تحضر الأمم والنهوض بها .

في الميدان الإداري :

في الميدان الإداري قام العلماء بنصيب وافر لخدمة الدولة ودعم استقرار أركانها ، فها نحن أولاء نجد الوزير الأديب / القاضي الفاضل ، والمستشار الأديب / عماد الدين الأصفهاني ، والمؤرخ المعلم / بهاء الدين يوسف بن شداد .. وغيرهم .. وغيرهم .. ، يسوسون البلاد والعباد أيام صلاح الدين الأيوبي في حنكة ومهارة وأمانة ، من خلال المناصب الحكومية في عهده ، حتى أننا نقرأ أن القاضي الفاضل كان بمثابة اليد اليمنى له في ميادين السياسة والحرب والاقتصاد والإدارة ، بل كان ـ كما قرأنا ـ مستشاره الخاص الأول في شئونه العائلية .

وابن الأثير الجزري المؤرخ ، كان يتولى الوزارة للملك الأفضل ، ابن صلاح الدين الأيوبي ، والأفضل هذا حكم دمشق من سنة 583 هـ إلى 592 هـ ، التي كانت معه في حياة أبيه ، ثم عزله عمه العادل واستولى على دمشق سنة 592 هـ ، وتوفى الأفضل سنة 622 هـ .

ونذكر صفي الدين بن شكر ، الذي تولى الوزارة للملك العادل شقيق صلاح الدين الأيوبي ، الذي حكم الموصل العراقية سنة 589 هـ ، و دمشق سنة 592 هـ ، ومصر سنة 596 هـ ، وصفي الدين هذا تولى الوزارة أيضًا للكامل محمد بن العادل ، والذي تولى حكم مصر من 615 هـ إلى 635 هـ ، ودمشق سنة 635 هـ .

وفي مناسبة معينة يقرر نور الدين محمود زنكي إنشاء مسجد كبير في حلب الشهباء ، فيعهد بالإشراف على عمارته وبالإنفاق عليه من خزانة السلطان إلى الشيخ / عمر الملا .

وهنا يعترض فريق من رجال نور الدين محمود ، من المدنيين والعسكريين على هذا الاختيار ، فللشيخ ميدانه الذي لا يباريه فيه أحد أو ينازعه ، وهو ميدان العلم والقيادة الدينية والروحية والوعظ والإرشاد ، أما مسألة أن يشرف على العمارة والشئون المالية والإدارية فليس من اختصاصه ولا هو في طاقته ، فليترك ما لا يستطيع إلى من يستطيع .

وهنا يرد نور الدين على المعارضين بأن الشيخ رجل يخاف الله ويتقيه حق تقاته ، ولهذا فإن النقود أو ميزانية المسجد ستكون لديه في أمان وحُسن رعاية ، ولن يلحقها أي اختلاس أو انتقاص .

وكما رأيت معي ـ عزيزي القارئ ـ فإن العلماء الحقيقيين لا يقصرون جهدهم على ميادين العلم ، وإنما يؤكدون نفوذهم في الإدارة إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وأيضًا في أمور السياسة ، وفي الحروب ، وذلك لقوة شخصيتهم ، وبقيادتهم الموجهة للرأي العام من أجل الصالح العام ، أضف إلى ذلك ما كان يتمتع به معظمهم من لباقة وكياسة وتعقل وقدرة على القناع بالحوار الهادف والكلمة الطيبة .

وقد توصل الباحث الفرنسي ، (لاوست) بدراسته عن (تقي الدين ابن تيمية) الصادرة في باريس ، سنة 1939 م ، توصل إلى أن نفوذهم كان يتزايد بالتدريج في عصر الأيوبيين (564 هـ - 648 هـ) فمهد هذا لسيطرتهم المتحكمة أيام المماليك (648 هـ - 923 هـ) ، ومن مظاهر سيطرتهم عندئذ أن كل رسالة سياسية إلى الفرنج أي الصليبيين أو إلى بركة خان أي التتار والمغول ، كانت تشمل واحدًا من العلماء على الأقل ، ونقصد بذلك أي سفارة أو وفد أو إرسالية دبلوماسية كان يرسلها الحكام إلى الصليبيين أو التتار ، كانت تتضمن عالمًا أو أكثر ، وذلك لثقة الحكام بالعلماء في تلك الآونة ، ولقدرتهم على الحوار والنقاش والوصول إلى أفضل النتائج في المفاوضات على كل المستويات .

ويذكر (لاوست) كذلك أن ابن تيمية الحراني أحس بخطورة هذا الموقف ، فحاول بدراساته الإصلاحية الاجتماعية أن يخلص الإدارة الحكومية بمختلف مستوياتها من الأمراء المتجبرين ، ومن بعض علماء الدين الذين شاركوهم في هذه الأرستقراطية الحكومية - تاركين دورهم في القيادة الروحية والدعوة والإرشاد ، كما طالب ابن تيمية أن يخضع الجميع للقانون الإسلامي الاجتماعي ، والذي يصبح العلماء في ظله في مكانة المرشدين فقط ، أو التوجيه الديني أو الروحي فقط .

ونؤكد هنا على أن ما ذهب إليه ابن تيمية كلام مهم وخطير ، سبق عصره ، وأعتقد أن هذا الرجل الإصلاحي في حاجة منا إلى إعادة دراسة بعيدة كل البعد عن ضيق الأفق الذي نتعامل به مع فكر هذا الرجل ، فكلام الرجل دعوة صريحة لم ننتبه إليها تطالبنا بضرورة عدم إقحام الدين في الشئون السياسية ، وتؤكد لنا على أن علماء الدين لهم دورهم التوجيهي والإرشادي والتربوي والأخلاقي والروحي .. فهل آن لنا أن نعي ذلك ونفهمه وندركه كل الإدراك ، فلعلنا نتمكن من علاج ما نحن فيه من كوارث ومشكلات .

العلماء فى ميدان المعرفة :

نقول : إن انصراف الكثير من العلماء في هذا العصر الذي نحن بصدده ، إلى شئون الإدارة العامة ، لم يصرفهم وغيرهم من بقية العلماء عن الميدان المعرفي الذي تخصصوا فيه ، بل إنهم كانوا يستغلونه أحيانًا لإصلاح شئون الدولة والحكم بطريق مباشر تارة ، وبغير ذلك تارات أخرى .

وقد ألف ابن شداد ، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع ، كتابه (سيرة صلاح الدين الأيوبي) المسمى بـ (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية) ، والنسخة التي لدينا مذيل عليها منتخبات من كتاب (التاريخ) لصاحب حماه ، تأليف / تاج الدين شاهنشاه بن أيوب ، طبع بالقاهرة ، سنة 1317 هـ .

وابن شداد من مؤرخي التراجم ، ولد بالموصل العراقية سنة 539 هـ ، و تعلم بها وببغداد ، وتولى التدريس في الموصل سنة 569 هـ ، وانتفع بعلمه كثير من الطلاب ، وذاع صيته ، ولما اشتهر به من رجاحة العقل وسداد الحكم ، عهد إليه حاكم الموصل بالسفارة في أمور سياسية بالغة الخطورة والأهمية ، ولما وقع من نزاع حاد بين صلاح الدين وأمير الموصل ، أثناء قيام صلاح الدين بتوحيد الجبهة الإسلامية ، أدى إلى التهديد بالاستيلاء على الموصل ، فكان لزامًا على أمير الموصل التماس الوسطاء لتسوية هذا النزاع ، وكان ابن شداد من بين هؤلاء الوسطاء ، فعرف صلاح الدين عن قرب .

ويشير ابن شداد إلى أن ثبت في نفس صلاح الدين ، في تلك الدفعة سنة 579 هـ مني أمره ، لم أعرفه إلى بعد خدمتي معه ، وبالفعل لم يفارق ابن شداد صلاح الدين ساعة من ليل أو نهار ، حتى حضر وفاته سنة 1193 م ، وبذل ابن شداد محاولات عديدة للتوفيق بين الأمراء الأيوبيين في مصر والشام ، وتولى القضاء في حلب ، وما حدث في حلب من اضطراب الأمور جعل ابن شداد يلزم داره ، وأن يدرس الحديث النبوي الشريف لمن يقصده من المريدين .

وفي زمن ابن شداد نشطت حركة الدراسة والعلم بفضل ما أنشأه من مدارس ، التي شجعها حكام هذا العصر وأمرائه ، وبفضل مركزه الديني والسياسي ، وكانت وفاة ابن شداد في حلب في سنة 632 هـ .

وعلى الرغم من مشاركة ابن شداد فيما وقع من أحداث ، وعلاقته الطيبة الدائمة مع صلاح الدين وأولاده ، واتصاله بالعلماء والفقهاء ، وقيامه بالسفارات بين الأمراء ، وتوليه مناصب رئيسية في الدولة ، وكل ذلك يؤلف مادة تاريخية وخبرة ، فإنه لم يؤلف في التاريخ إلا كتاب (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية) ، الذي يعتبر ترجمة لصلاح الدين ، التزم فيه الأسلوب السهل والعبارة المحددة ، ولم يلجأ إلى التعقيد والاسترسال مثلما نجد عند العماد الأصفهاني في كتابه (الفتح القسي في الفتح القدسي) .

لقد اعتمد ابن شداد فيما أورده عن الأحداث السابقة على دخوله في خدمة صلاح الدين ، على ما توافر لديه بعد 584 هـ من أخبار ومؤلفات تاريخية ، أما القسم الثاني الذي يعتبر أعظم شأنًا من الناحية التاريخية ، فيتضمن مشاهدات ابن شداد ومعاصريه الذين اتصل بهم عقب وقوع الحوادث .

ولم يكتف ابن شداد في الفترة الواقعة بين 1188 م و 1193 م ، بأن يعرض سجلاً أمينًا لما شهده من أحداث ، بل إنه بفضل مكانته باعتباره صديقًا لصلاح الدين وملازمًا له في كل تحركاته ، حتى يوم وفاته ، أوقفنا على ما اشتهر به من بصيرة نافذة في إدراك الحوافز ، التي أنارت لصلاح الدين في كثير من القرارات الأخيرة ، على أن ما أورده ابن شداد من أخبار عن الفترة الواقعة بين 1169 م و 1188 م ، يعتبر فيها مصدرًا ثانويًا ، ولم يكن ينجو من الأخطاء في تفاصيل الحقيقة والتاريخ .

هذا ، وقد نشر هذا الكتاب لأول مرة سشيلتينس في ليدن الهولندية من سنة 1732 م إلى سنة 1755 م ، وترجمه إلى الإنجليزية كوندر سنة 1897 م ، في مجموعة : جمعية دراسات حجاج فلسطين تحت عنوان (حياة صلاح الدين) ، ونشر أيضًا في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، المؤرخين الشرقيين ، الجزء الثالث ، أن لكتاب (النوادر السلطانية) لابن شداد ، طبعة قام على تحقيقها ونشرها أستاذنا الدكتور / جمال الدين الشيال (رحمه الله) ، وصدرت في القاهرة سنة 1965 م .

ويجدر بالذكر هنا أن لابن شداد كتابًا أو كتيبًا أعده خصيصًا لصلاح الدين الأيوبي ، بعنوان (فضائل الجهاد) ، جمع فيه العديد من الأحاديث النبوية المطهرة التي تحث على الحرب وجهاد الأعداء ، وقد أراد بذلك أن يحث ويشجع على مواصلة حربه ضد الصليبيين ، حتى ينجح في طردهم نهائيًا من بلاد الشام .

وواقع الأمر يقول أن ابن شداد كان بمثابة المعلم والموجه والمستشار والسفير لصلاح الدين الأيوبي ، لذلك كتب عنه بحميمية شديدة ، ورأى فيه أنه المخلص الحقيقي من عدوان الصليبيين ، بل هو مفتاح وحدة البلاد الإسلامية

***

ونذكر هنا ابن الأثير ، صاحب كتاب (الكامل في التاريخ) ، الذي عاش في الفترة من 555 هـ إلى 630 هـ ، حيث استقرت أسرته في الموصل العراقية ، وهو أوسط الأخوة الثلاثة الذين نبغوا في ميادين الدراسات العربية والإسلامية .

وكان ابن الأثير حافظًا بالتواريخ المتقدمة والمتأخرة وخبيرًا بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم ، ولذا كان أكثر ما اشتهر به دراسة التاريخ ، ويعتبر كتاب (الكامل في التاريخ) ، الذي طبعه تورنبرج في ليدن الهولندية في 12 مجلد ، مرفق به مجلدين للفهارس ، من أهم مؤلفاته في هذا المجال ، إذ تناول فيه دراسة التاريخ العام للعالم الإسلامي ، ابتدأ فيه بالخليقة ، وانتهى عند آخر سنة 628 هـ .

ويعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب في التاريخ الإسلامي ، حيث التزم المؤلف في نهجه التوازن بين أقاليم العالم الإسلامي ، ومقارنة ما يقع من الأحداث في كل منها ، عامًا بعد عام ، واعتمد على المتخصصين في تاريخ كل إقليم ، وتجلت مواهب ابن الأثير في طريقة عرضه للحقائق ، إذ حذف التفاصيل التي لا تدعو الحاجة إليها ، وأمعن في فحص المصادر ، واختار من النصوص ما يناسب الحقائق ، وألف من كل ذلك خلاصة لكل ما وقع من الأحداث في السنة

ولكتاب ابن الأثير ابتداء من الجزء العاشر ، أهمية خاصة ، نظرًا لأنه يؤرخ لأحداث قريبة العهد من زمنه ، سمع بها وشارك فيها ، وعالج في هذه الفترة الممتدة من سنة 450 هـ ما وقع من صدام بين الغرب المسيحي والعالم العربي فيما يسمى أو يعرف بالخروب الصليبية .

ومما يلفت نظرنا في كتابة ابن الأثير ، ما كان من اهتمامه البالغ بأخبار الدولة الأتابيكية بالموصل حتى سنة 607 هـ ، وامتداد سلطان الترتكيين إلى حلب ودمشق السوريتين ، ثم انحصار ملكهم حتى أصبح قاصرًا على الموصل فقط .

أما رواياته عن صلاح الدين الأيوبي ، فإنها تنطوي على كراهية شديدة له ، برغم أنه أشاد ببطولته ، إلا أنه صوره على أنه بطل سخر كل مواهبه العسكرية لإشباع أطماعه وأطماع أسرته وإقامة إمبراطورية يتوارثها أبناءه من بعده ، وقد يقول البعض أن هذا الحكم تأثر بما كان يربط ابن الأثير من الولاء للترتيكيين .

ويتابع ابن الأثير أخبار المسلمين في المشرق و المغرب بعد صلاح الدين ، وما آل إليه أمرهم من تفكك وتمزق ، وما ترتب على ذلك من تعرض لأخطار الصليبيين والتتار .

ويعتبر كتاب ابن الأثير من المصادر الأصلية للحروب الصليبية ، وقد قام المستشرق دي سلان بنشر كل ما أورده ابن الأثير مع ترجمة فرنسية في مجموعة الحروب الصليبية ، الجزآن الأول والثاني من مجموعة المؤرخين الشرقيين .

ومن هذا الكتاب طبعة قديمة قامت بها مطبعة بولاق المصرية ، في 12 جزءًا ، سنة 1290 هـ = 1872 م ، كما أن له طبعات أخرى بتواريخ مختلفة ، إلا أن طبعة بولاق من أفضل الطبعات التي يمكن الاعتماد عليها .

ونشير هنا إلى أن ابن الأثير ، صاحب كتاب (الكامل في التاريخ) ، ألف كتابًا بعنوان (تاريخ أتابكة الموصل) ، وأهداه إلى السلطان الصغير / القاهر مسعود صاحب الموصل ، تذكيرًا له بالأمجاد التي كانت لآبائه أمراء الموصل ، وحثًا له على أن يعمل على سلوك سبيله .

***

وألف أبو شامه ، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي ، كتابه المعروف (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية) ، والذي طبع في القاهرة لأول مرة ، سنة 1287 م - 1288 م ، في مجلد واحد .

وأبو شامه ولد في دمشق ، سنة 599 هـ ، ونشأ وتربى فيها ، ولم يبرحها إلا لأداء فريضة الحج ، وزيارة بيت المقدس الشريف ، ولاستماع إلى علماء مصر الذين تواجدوا في القاهرة والإسكندرية ودمياط ، وبعد أن فرغ من دراسته الدينية التي شملت : القرآن الكريم ، والفقه الإسلامي ، وعلوم اللغة العربية ، انصرف إلى دراسة التاريخ .

وإذ عاش أبو شامه في الفترة التي تلت صلاح الدين ، والتي سادت فيها الاضطرابات والفتن والحروب الداخلية ، التي كادت تقضي على لوحدة الإسلامية ، هنا قرر أبو شامه أن يكتب كتابًا ، يذكر فيه الدولتين النورية والصلاحية ، أي دولتي نور الدين محمود زنكي وصلاح الدين الأيوبي ، حيث تضمن هذا الكتاب التقريظ لهما ، فلعله يقف عليه من الملوك من يسلك في ولايته ذلك المسلك .

وتناول المؤلف الفترة التي تستغرق حكم أبطال الوحدة الإسلامية ، عماد الدين زنكي ، ونور الدين محمود زنكي ، وصلاح الدين الأيوبي ، وتحدث بالتفصيل عن تنقلات الجيوش ووصف الأسلحة ، وذكر كيف كان يسود العدل بين الناس من جانب الحكام ، والمدارس العديدة التي تم إنشاؤها في مختلف الأماكن ، فضلاً عن القرارات والمنشورات والرسائل التي كان أبو شامه يعزز أو يوثق بها كتاباته ، وجرى الكتاب على نظام الحوليات (السنوات) في الفترة الممتدة من سنة 542 هـ حتى سنة 589 هـ ، أي مدة حكم نور الدين وصلاح الدين .

وفي واقع الأمر فإن كتاب (الروضتين) يعد سجلاً حافلاً لتاريخ الدولتين النورية والصلاحية من الجانب الحكومي : حربًا وسياسة وإدارة ، فضلاً عن الجانب الشعبي أو الجماهيري ، والذي يتمثل في تأييد العلماء ورجال الأدب والشعر .

ونظرًا لما كان من اتصال سياسي وحربي أثناء تلك الفترة بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحس لقي الكتاب اهتمامًا كبيرًا من العلماء والباحثين الأجانب ، ففي سنة 1879 م ، صدرت ترجمة ألمانية لبعض أجزاء الجزء الثاني من هذا الكتاب ، قام بها جيورجينس ، ولم يهتم فيها إلا بما يتصل منها بتاريخ الحروب الصليبية .

وبعد ذلك تم نشر ما يتصل بالحروب الصليبية مع ترجمة فرنسية ، في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، المؤرخين الشرقيين ، الجزء الرابع .

وقام أستاذنا الدكتور / محمد حلمي أحمد (رحمه الله) ، بنشر وتحقيق الجزء الأول من هذا الكتاب ، حيث صدر في القاهرة سنة 1956 م ، وبعد ذلك بعام تقريبًا صدر الجزء الثاني بتحقيقه أيضًا ، والذي انتهى فيه إلى أحداث سنة 557 هـ .وأحب الإشارة هنا إلى أن الكتاب صدر عن لجنة التأليف والترجمة والنشر ، التي أسسها أستاذنا الدكتور / أحمد أمين ومعه نخبة متميزة من أهل العلم والفكر والأدب ، فأخرجوا لنا دررًا نفيسة في شتى مجالات المعرفة ، ما زلنا ننهل منها إلى يومنا هذا .

هذا ، وقد قام كاتب هذه السطور بالحديث المطول عن مجموعة كبيرة من المؤرخين في تلك الفترة ، ومن أبرزهم ابن الأثير وأبو شامه وابن شداد وغيرهم .. ، وذلك ضمن كتابه (معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري) ، والصادر عن دار الكتب العلمية ، لبنان / بيروت ، سنة 1991 م ، وقد أعيد طبعه أكثر من مرة ، ولاقى قبولاً حسنًا كمرجع علمي معتمد لدى القراء والباحثين ، فلله الحمد والمنة .

وهنا أذكر أيضًا دراستي المعنونة بـ (يا نور الدين..) والتي تناولت فيها بالتفصيل حياة البطل القائد المجاهد / نور الدين محمود زنكي ، ودوره الكبير في وحدة الأمة العربية والإسلامية ، وجهوده المشهودة من أجل تحقيق العدل والأمن والاستقرار في سائر البلاد ، وبين العباد ، وقد كتبت سنة 2005 م ، وقمت بتنقيحها وإضافة المزيد إليها سنة 2007 م ، وعلى الله قصد السبيل .

نفوذ العلماء لدى السلاطين والأمراء :

كان لبعض العلماء نفوذ شخصي لدى السلاطين والأمراء ، ويكفينا هنا أن نذكر من الأمثلة سبط الجوزي ، صاحب كتاب (مرآة الزمان في تاريخ الأعيان) ، والذي طبع لأول مرة في حيدر أباد الهند ، سنة 1370 هـ - 1371 هـ = 1951 م - 1952 م ، في مجلدين .

وهو شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأوغلي ، حفيد ابن الجوزي من جهة الأم ، وكان أبوه قزأوغلي مملوكًا للوزير ابن هبيرة ، الذي أعتقه .

ولد ببغداد سنة 582 هـ ، وقام جده على تربيته وتعليمه ، ثم أخذ منذ سنة 600 هـ يطوف بالبلاد ، حتى استقر به المقام في دمشق ، فصار يمارس بها مهنة التدريس والخطابة ، حتى توفي سنة 684 هـ .

وكتابه الشهير (مرآة الزمان في تاريخ الأعيان) يقع في عدة أجزاء ، تناول الجزء الأخير منه ، الذي طبع في الهند في قسمين ما وقع من الأحداث بين سنة 495 هـ و 654 هـ .

فشمل القسم الأول السنوات من 495 هـ حتى 589 هـ ، وعالج القسم الثاني السنوات من 590 هـ إلى 654 هـ ، ولم يختلف في نهجه عن الطريق التي سلكه جده ، على أن الفترة التي يعالجها هذا الكتاب تعتبر من الفترات الحاسمة في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، إذ شهدت نشوب الحروب الصليبية ، ولذا ورد هذا الكتاب ومؤلفه ضمن مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، المؤرخين المسلمين ، في الجزء الثالث ، كل ما وقع من أحداث في الفترة بين 452 هـ - 532 هـ ، واتفق في كثير من الروايات مع ابن الأثير والمؤرخين البيزنطيين .

ويجدر بالذكر أن : ج . ر . جيويت ، قام بنشر هذا الجزء بطريقة التصوير الفوتوغرافي ، وصدر في ولاية شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية ، سنة 1907 م .

أقول لك أن سبط ابن الجوزي نجح في حث الملك الأشرف موسى على حمل السلاح والتقدم بجيوشه إلى مصر لمساعدة صاحبها أخيه الملك الكامل ضد الصليبيين الذين هاجموا دمياط واستقروا بها سنة 618 هـ .

وكان الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وشقيق الملكين قد فشل في جمع هذين الملكين من قبل ، والأشرف موسى حكم الموصل سنة 607 هـ ، قبل وفاة الملك العادل ، ثم بعد وفاته ، وضم حمص سنة 617 هـ ، ودمشق سنة 626 هـ ، وتوفي سنة 635 هـ ، أما المعظم عيسى ، فقد حكم دمشق سنة 615 هـ ، حتى وفاته سنة 624 هـ .

والأشرف والمعظم من أولاد العادل شقيق صلاح الدين الأيوبي ، ومعهما الصالح إسماعيل والكامل محمد ، الذي حكم مصر من سنة 615 هـ إلى 635 هـ ، وحكم دمشق سنة 635 هـ .

وبالطبع هنا ندعو اله أن يلهم علماء أمتنا الصوب ويقومون بدورهم في التوفيق بين حكام الأمة ، فكم نحن في حاجة ماسة إلى الوحدة والاتحاد لمواجهة ما يراد بنا من فرقة وتمزق وتفكك .

أما الملك الأمجد الأيوبي ، صاحب بعلبك ، فكان يزور الشيخ / عبد الله اليونيني الذي لم يكن يحفل باستقباله في مجلسه ، أو يقم لتحيته ، بل كثيرًا ما لامه على مظالمه تجاه الرعية ، وكان الأمجد يعتذر إليه ويعده بالإصلاح .

وقد نجح اليونيني هذا في دعايته ضد القراطيس السود العادلية التي طرحت في الأسواق للتداول كعملة نقدية بدلاً من الدراهم والدنانير ، فبطل العمل بها .

وكان المعظم عيسى الأيوبي صاحب دمشق يمشي من القلعة راجلاً إلى دروس الإمام / تاج الدين الكندي تكريمًا له ولعلمه ، وحدث أن دخل مرة على التاج ، فسكت الحاضرون ، فقال التاج : إنما سكتوا لأجل السلطان ولم يفرغوا من حزبهم ! ، فقال المعظم : لا ، والله إنما القراءة بالنوبة فليتموا .

أما الشيخ البطل / عز الدين بن عبد السلام ، فقد نقم على الصالح إسماعيل صاحب دمشق ، لاستعانته بالفرنجة ضد منافسيه من أمراء الأيوبيين ، حتى أنه قدم لهم مدينة صيدا اللبنانية عربونًا لصداقته معهم ، وتلك جريمة نكراء لا تغتفر ، فأسقط الشيخ البطل اسم الصالح إسماعيل من الخطابة يوم الجمعة ، وأيده في هذه الخطوة الجريئة الشيخ / جمال الدين بن الحاجب إمام المالكية وغيره من علماء الأمة .

وبعد ذلك مباشرة خرج الشيخ / عز الدين بن عبد السلام من دمشق إلى مصر ، فأقام بها حتى توفاه الله ، سنة 660 هـ ، وعند وفاته قال الظاهر بيبرس حاكم مصر في تلك الآونة : اليوم استقر ملكي لي ، فلو أمر عز الدين بن عبد السلام في شأن الناس بما أراد لأطاعوه مبادرين !! .

دور النساء ونصيبهن في النشاط العلمي :

كان للنساء نصيب يذكر من النشاط العلمي في هذا العصر ، فقد كنا ينشئن المدارس الخاصة لتعليم الصبيان ، ولدراسة الحديث النبوي الشريف ، والمذاهب الفقهية المختلفة .

وأحب أن أذكر لك هنا أنه ظهر من بين السيدات من اشتهرت بالتفوق في فن معين من فنون المعرفة ، فها هي ذي (شُهدة) تكتسب شُهرة فائقة لتخصصها في دراسة الحديث النبوي المطهر وعلومه المختلفة ، حتى أصبحت تعد من كبار رواته وحفاظه .

وتلك أخرى اسمها / نعمة بنت علي والتي عرفت بلقب (ست الكتبة) ، اهتمت بدراسة الحديث النبوي ، وتخصصت في شرح ودراسة كتاب (الشمائل) للإمام / الترمذي .

مواد الدراسة :

وإذا أردنا الحديث عن المواد أو العلوم التي كان يتم تدريسها للطلاب في تلك الفترة ، نجد أنها تركزت حول العلوم الدينية طبقًا للمذهب السني ، أما الدراسات اللغوية والعربية فكانت تعتبر مساعدة على تفهم العلوم الدينية ، ونفس الأمر كان بالنسبة لدراسة الأخبار أو التاريخ ، لم تكن أكثر من مادة ثقافية مساعدة أو تكميلية

نقول : ومع هذا فقد التمس دارسوا علم اللغة والتاريخ لهذه العلوم صلة قريبة أو بعيدة بالدراسات الدينية ، فها هو المؤرخ / أبو شامه صاحب كتاب (الروضتين) قد أقبل على دراسة التاريخ في مرحلة متأخرة من حياته التعليمية ، وذلك بعد أن قضى أغلب عمره في اقتباس الفوائد الدينية ، وهو إنما قرر أن يتجه إلى دراسة التاريخ في بعض وقته ، ليحوز بذلك سنة العلم وفرضه ، اقتداء بسيرة من مضى من كل عالم مرتضى .

أما المنهج التفصيلي للدراسة فكان يختلف بالنسبة لأعمار الدارسين ، فصغار الطلاب أو المبتدئون كانوا يحفظون القرآن الكريم ويدرسون بعض قراءاته المختلفة .

كما كانوا يتعلمون الشعر وأيام العرب وأخبارهم مستعينين بها على تعلم الكتابة ، ذلك لأنهم كانوا يحفظون القرآن الكريم تلقينًا صيانة لكلام الله عن التصحيف والتحريف على يد هؤلاء الصبيان الصغار .

وبالنسبة للإملاء كان الطلاب يتدربون عليها تحت إشراف الأساتذة ، وكذلك الاستماع في باقية المواد الدراسية ، الذي كان يفضل على طريقة النقل في هذه الحقبة ، وبخاصة في دراسة الحديث الشريف ، ذلك أن طريقة النقل والنسخ كانت تؤدي أيضًا إلى التصحيف والتحريف ، وهذا ما يؤكده ابن عساكر ، محدث دمشق الأكبر ، في أكثر من موضع مفضلاً طريقة الإملاء

ولهذا نجد معظم الإجازات العلمية (الشهادات) التي كانت تمنح للطلبة من أساتذتهم مصدرة بعبارة : سمع مني ، أو قرأ علي ، أو نحو ذلك .

أما كبار الطلاب فقد يسر العلم لهم في دور الحديث النبوي ، وفي المدارس المختلفة بعد الفراغ من حفظ القرآن الكريم ودراسة قراءاته ، لكنهم لم يكونوا يقيدون بمنهج معين يتبعونه في دراساتهم بعد اجتياز هذه المرحلة ، بل كانوا يختارون من المواد ما يناسبهم ، ومن الكتب ما يرغبون فيه ، وهم في هذا الاختيار تأثروا إلى حد كبير بواحد من اثنين :

أولهما :

شخصية من الشخصيات البارزة في الميدان العلمي ، تميزت بتقواها وصلاحها وبعلمها الغزير وبتمكنها من المادة العلمية التي تخصصت فيها ، أو في الكتاب الذي تعرضت لدرسه وشرحه .

ثانيهما :

وفرة الأوقاف المخصصة لطلاب العلم في مدرسة بعينها ، ومعنى هذا : أن الطالب كان لا يهتم ، إلا في حالات قليلة ، باختيار علم بذاته ليتخصص في دراسته لشغفه به أو لرغبته الخاصة في الوقوف على أسراره ، ولهذا أيضًا وجدنا العلماء في هذه الحقبة يجمعون أنواعًا مختلفة من الثقافة والمعرفة لا يتخصصون في فن بعينه ، كما يتبن لنا من مطالعة كتب التراجم المختلفة .

لكن هذا لا يعني أن التخصص العلمي قد انقطع تمامًا ، إذ أننا لازلنا نجد من بين العلماء حينئذ بعض المتخصصين المبرزين ، ومنهم ابن عساكر الكبير الحافظ عبد الله محدث دمشق المعروف ، والذي تخصص في دراسات الحديث الشريف ، وإن كان قد برع في فقه الإمام / الشافعي ، وكتب التاريخ .

ونذكر لك المقرئ والفقيه / علم الدين السخاوي ، الذي برع في علم القراءات ، وكذلك زين الأمناء / ابن عساكر المتمكن في فقه الشافعية ، وعبد الله اليونيني عالم الفقه الحنبلي الذائع الصيت ، وأبو اليمن تاج الدين الكندي صاحب الشهرة الواسعة في إتقان علوم العربية .

ومن هؤلاء المتخصصين من اشتهر بإتقانه تدريس كتاب بعينه ، وهذا نوع من المبالغة في التخصص ، ومن أمثلتهم : علم الدين السخاوي المقرئ الذي تخصص في قصيدة الإمام / الشاطبي (الشاطبية) ، فقام بشرحها وتدريسها طوال حياته ، ثم جاء المؤرخ / أبو شامه الذي تتلمذ على يد علم الدين السخاوي ، فزاد هذه القصيدة شرحًا بعد أن لزم صحبة السخاوي زمنًا طويلاً .

ونذكر لك منهم كذلك الشيخة / نعمة بنت علي المعروفة بـ (ست الكتبة) التي تخصصت في شرح وتدريس كتاب (الشمائل) للترمذي ، ونذكر لك أيضًا الشيخ / أبا اليمن تاج الدين الذي تخصص في شرح وتدريس كتاب (المفصل) لجار الله الزمخشري .

وفي رأينا المتواضع : إن السر في قلة الانصراف إلى التخصص العلمي بصورة ملحوظة في هذا العصر الذي نتحدث عنه أن الحركة العلمية بدأت ، واستمرت مدة طويلة ، قوية مندفعة متحمسة لمقاومة الدراسات الفلسفية والمنطقية التي كانت وسائل الدعاية الشيعية ، والإسماعيلية خاصة .

وهذه الحركة القوية استندت إلى الدراسات النقلية التي تعتمد على القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وعلى آراء أئمة الفقه القدامى الذين وضعوا أسس الدراسة السنية ، ومن وراء هذه الحركة الأمراء والحكام ، ومن اتصل بهم ، الذين كانوا يتنافسون أشد المنافسة في إنشاء المدارس ، وفي تخصيص الأوقاف الغنية السخية للإنفاق على هذه المدارس ، وفي تقريب العلماء واستشارتهم في شئون الدولة إدارة وسياسة وحربًا واقتصادًا .

(5) نظرة إلى : التعليم في عصر نور الدين زنكي[المدرسة النورية الكبرى نموذجاً]

دور ثقافي متميز :

قبل أن نتكلم عن المدرسة النورية الكبرى كنموذج لاهتمام نور الدين بالتعليم بوجه عام وبإنشاء المدارس والمعاهد التعليمية بوجه خاص ، نحب أن نقول : إن الدور السياسي الضخم الذي قام به نور الدين محمود لخدمة العالم الإسلامي ولتجميع كلمة الإسلام أمام الزحف الصليبي الاستعماري أمر على درجة كبيرة من الأهمية لا يمكن تجاهله في دراسة تاريخ الحضارة الإسلامية ، وهذا الدور المهم يراه كل من يدرس الحروب الصليبية ، ويدرس تاريخ آل زنكي (521 هـ - 577هـ) ، وبالذات فترة عماد الدين زنكي (521 هـ - 541 هـ) ، وفترة نور الدين محمود زنكي (541 هـ - 569 هـ) ، وأيضًا تاريخ الدولة الأيوبية .

وفي واقع الأمر أن نور الدين لم يكن رجلاً عسكريًا فقط ، بل إنه لعب دورًا ثقافيًا مهمًا للغاية يجب التنبه إليه عند دراسة الحضارة الإسلامية .

في أواخر القرن الثالث الهجري بدأ الفاطميون يكونون دولة في الشمال الأفريقي ، ثم زحفوا إلى مصر سنة 359 هـ ، وهنا وهناك بدءوا ينشرون مذهب الشيعة ، ويقاومون مذهب أهل السنة ، وفي نفس الفترة كان البويهيون قد حققوا انتصارًا على بقايا الأتراك المماليك وبدءوا سلطانهم على الخلافة العباسية سنة 334 هـ ، وبالتالي عملوا على نشر التشيع ومقاومة المذهب السني وجاء حكم السلاجقة 447 هـ فبدءوا يعيدون الأمور إلى نصابها ، وقام الوزير السلجوقي الشهير / نظام الملك بدور كبير في إحياء الدراسات السنية ، والقضاء على بقايا التشيع ، وإلى هذا الوزير تنسب المدارس النظامية التي جلس الإمام / أبو حامد الغزالي صاحب كتاب (إحياء علوم الدين) يعلم فيه إحداها ، وكان لها نصيب كبير في تنشيط المذهب السني ومقاومة التشيع .

لقد اقتبس نور الدين محمود زنكي هذا الاتجاه من نظام الملك فنشر في مملكته بحلب ودمشق مدارس كتلك التي أنشأها الوزير السلجوقي / نظام الملك ، فكانت بذلك امتداد له ، كما كان امتدادًا لأبيه البطل / عماد الدين زنكي في الانتصارات العسكرية التي حققها .

ثم جاء صلاح الدين الأيوبي فورث مملكة نور الدين زنكي في الأمرين جميعًا ، وبمعنى آخر حل محله في مقاومة أدعياء حماية الصليب ، كما نقل اتجاهاته الثقافية إلى مصر فأنشأ بها مدارس لخدمة المذهب السني ، امتدادًا لمدارس نظام الملك السلجوقية في العراق ، ومدارس نور الدين محمود زنكي في الشام .

ولذلك : فإن الباحث يجد أن نور الدين زنكي فصلاح الدين الأيوبي يمثلان الحلقتين الثانية والثالثة في كل من الصراع العسكري ضد الصليبيين وإحياء الدراسات السنية ، أما الحلقة الأولى في الصراع العسكري فيمثلها عماد الدين زنكي ، وفي إحياء الدراسات السنية يمثلها الوزير / نظام الملك .

وعليه فإننا نجد أن أي دراسة عن المدارس الإسلامية كإحدى أماكن التربية والتعلم في الحضارة الإسلامية ، يجب أن تعطى اهتمامًا كبيرًا للدور الذي لعبه كل من : الوزير / نظام الملك ، و البطل / نور الدين محمود زنكي ، والدولة الأيوبية بوجه عام في إنشاء المدارس والاهتمام بها ورعايتها كأهم مؤسسة للتربية ونشر العلم ، وسوف نكتفي في هذه السطور المتواضعة بالكلام عن المدرسة النورية الكبرى التي أنشأها نور الدين زنكي ، كنموذج أو كمثال لاهتمام نور الدين بالتعليم وإنشاء المعاهد التعليمية .

مدارس نور الدين :

نور الدين محمود زنكي هو أول من أنشأ مدرسة في دمشق السورية ، أضف إلى ذلك مدارسه الكثيرة التي كانت منتشرة في مدن سوريه وقراها .

وقد سجلت كتب التاريخ بعضاً من هذه المدارس ، ففي دمشق أنشأ دار الحديث النورية ، والمدرسة الصلاحية ، ومدرسة الكلاسية ، والمدرسة النورية الصغرى ، ولكن أشهر هذه المدارس المدرسة النورية الكبرى ، وسوف نتحدث عنها كنموذج للمدارس التي أنشأها نور الدين محمود ، وذلك بشيء من التفصيل

وفي حلب أنشأ المدرسة الحلوية ، والمدرسة العصرونية ، والمدرسة النورية ، والمدرسة الشبيبية .

وفي حماة أنشأ نور الدين مدرستين ، وفي حمص أنشأ مدرستين أيضاً ، وفي بعلبك اللبنانية أنشأ مدرسة واحدة .

مكانة سامية :

أما المدرسة النورية الكبرى فقد زارها الرحالة ابن جبير المتوفى سنة 614 هـ ، بعد افتتاحها بسنوات قليلة، وقد وصفها في رحلته وصفاً يدل على مكانتها السامية في تلك الأزمان .

فهي من أحسن مدارس الدنيا مظهراً ، وهي قصر من القصور الأنيقة ينصب فيه الماء في حوض وسط نهر عظيم ، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة إلى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار ، فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر .

وقد طافت الأحداث والسنون بهذا المعهد العلمي العظيم ، فغيرت منه وقللت من بهائه ، ولكنه لا يزال يحتفظ بطابع الجلال ، ولا يزال يوحي بأنه كان في عهده قريباً إلى الكمال ، شاملاً كل ما يحتاجه معهد علمي للدراسة العليا ، مزوداً بقسم داخلي مكتمل المرافق والالتزامات .

نور الدين هو المنشئ الحقيقي :

وقد ذكر المؤرخ / أبو شامة المتوفى سنة 665 هـ ، وابن شداد (محمد بن علي) المتوفى سنة 684 هـ ، أن الذي أنشأ هذا المعهد العلمي (المدرسة النورية الكبرى) هو نور الدين محمود زنكي سنة 563 هـ .

ولكن ألنعيمي المتوفى سنة 927 هـ ، والذي يعتمد في أغلب ما كتب على ابن شداد ويقتبس منه أكثر مادته ، يختلف معه ، ويقرر أن الذي أنشأ هذه المدرسة هو الصالح إسماعيل ابن نور الدين محمود زنكي .

ولم يذكر النعيمي لنا سبباً واضحاً حدا به إلى هذا الادعاء ، وكل ما يشير إليه هو أن جثمان نور الدين لم يدفن عقب وفاته مباشرة في ضريحه بالمدرسة ، وإنما دفن في مكان آخر ، ثم تم نقل الجثمان في عهد ابنه إسماعيل إلى مكانه الحالي بالمدرسة النورية .

وفي الواقع أن هذا لا يستدعي أن تكون المدرسة قد أنشأت في عهد إسماعيل ، إذ من اليسير أن تكون المدرسة قد تمت وافتتحت في عهد نور الدين ، ولكن الضريح لم يكن قد أعد بعد ، إذ أنه شيء يلحق بها ، وليس من مرافقها اللازمة لها .

ومن أجل هذا كان الضريح دائماً آخر ما يشيد بالمدرسة ، فلما توفي نور الدين في هذه الأثناء دفن في مكان مؤقت حتى أعد الضريح ، ثم نقل إليه الجثمان.

ومما يؤكد لنا أن نور الدين هو الذي بنى هذه المدرسة ، تلك الكتابة التي نقشت على الحجر الضخم الذي يكون العتبة العليا لمدخل المدرسة ، وهذه الكتابة قديمة تاريخها سنة 567 هـ ، أي كتبت في حياة نور الدين الذي توفي بعد ذلك بسنتين فقط ، وقد ورد في هذه الكتابة أن نور الدين هو منشئها ، ويبدو أن النعيمي لم ير هذه الكتابة .

الموقع والمساحة :

وتقع هذه المدرسة بخط (حي) الخواصين ، وهو الحي الذي يسميه أهل دمشق السورية في الوقت الحاضر (الخياطين) ، وهي في الجنوب الغربي بالنسبة للجامع الأموي ، وتبعد عنه قرابة نصف ميل تقريبًا .

وقد أسست المدرسة النورية الكبرى على مساحة مقدارها 1500 متر مربع تقريباً ، ولكن المساحة الحالية تنقص عن ذلك بحوالي 150 متراً سلبها جيرانها من الجهة الغربية ، وقد هدم البناء الأصلي ، وتجدد بناؤه ، ولم يبق من البناء القديم إلا الباب والبهو والقبة ومخطط الصحن .

ولكن يلاحظ في البناء الحالي للمدرسة أنه كان إلى حد كبير على أساس البناء القديم .

وتقوم مباني المدرسة في جوانب المساحة ، أما الوسط فصحن مربع مساحته 340 متراً تقريباً ، نمت به بعض الأشجار ، ويقع في وسطه بحيرة طولها 7.8 من الأمتار ، وعرضها 6.8 من الأمتار ، يمدها بالماء مجرى صغير ينساب فيه الماء من صنابير (حنفيات) ، ونافورة في الجانب المقابل للباب ، وقد بني هذا المجرى موضع قناة صغيرة كانت تجلب الماء لهذه البحيرة من نهر قنوات أحد أنهار دمشق السبعة .

الباب والممر :

وباب المدرسة الحالي هو نفس بابها القديم ، وهو باب ضخم دقيق الصنع ، وعتبته العليا عبارة عن حجر كبير كتب عليه بطريقة الحفر وبخط الثلث اسم منشئ المدرسة (نور الدين محمود زنكي) ، وتاريخ إنشائها (563 هـ) ويؤدي الباب إلى ممر مستطيل ، وفي منتصف الممر مدخل آخر لا باب له ، وهذا الممر يقود إلى صحن المدرسة.

والسائر في الممر يجد إلى يمينه ضريح الشيخ / محمد بن دقيق العيد ، المتوفى سنة 702 هـ ، وباب الضريح في الشارع الذي به المدرسة النورية ، وعلى يسار الداخل يقع ضريح نور الدين محمود منشئ المدرسة ، ولهذا الضريح قبة ضخمة عجيبة الصنع ، وهي من نفس طراز القبة الموجودة بالمارستان النوري (المستشفى) الذي أسسه نور الدين لعلاج الناس بالمجان بغض النظر عن الجنس أو العرق أو الديانة ، وليس في العاصمة السورية دمشق قباب أخرى من ذلك الطراز.

مسكن مدرس المدرسة :

وبعد أن يتجاوز السائر في الممر بمحاذاة ضريح الشيخ / دقيق العيد ، يجد باباً يؤدي إلى حجرة السلم ، ويقوده السلم إلى المسكن الخاص بمدرس المدرسة ، أو بمعنى آخر كبير مدرسي المدرسة أو عميدها أو مديرها أو ناظرها ، ولهذا السلم فرع آخر يبدأ من منتصفه ، ويتجه اتجاهاً آخر فيدور حول قاعدة ارتفاعها 6 أمتار ، ويبدو أنها قاعدة لمئذنة أو منارة (لم نعثر على مادة عنها) ، وينتهي هذا الفرع بالصاعد به إلى سطح المدرسة .

مرافق المدرسة النورية :

ـ الإيوان (قاعة المحاضرات) :

وهو أهم مكان في المدرسة ، لأنه يرادف التعبير الحديث (قاعة المحاضرات) ، وإيوان المدرسة النورية الكبرى يتسع لحلقة كبيرة للدرس ، فطوله 8 أمتار ، وليس لهذا الإيوان باب ، وإنما هو مفتوح على امتداد طوله ، مع سلمين في نهايتي الامتداد يصعد عليهما طلاب المدرسة ، إذ أن الإيوان يرتفع عن الصحن بمتر واحد تقريباً .

ـ المسجد :

يقع الإيوان يمين الصحن بالنسبة للداخل إلى المدرسة ، ويقابله على اليسار المسجد ، والمسجد هو المكان التالي للإيوان في الأهمية ، ولم يكن المسجد خاصاً بالطلاب فقط ، وإنما كان مفتوحاً لكل الناس ، ومن أجل ذلك وضع في أقصى مكان من الإيوان ، حتى لا يتأثر المصلون والعابدون بما قد يثار في حلقة العلم من ضجيج المناقشات والمحاورات ، ولمسجد النورية محراب قديم ، ويتصل هذا المسجد بالصحن بواسطة فتحات ثلاث ذات عقود ولا أبواب لها ، والفتحة الوسطى هي أكبر هذه الفتحات .

- **استراحة المدرس** :

يتصل الجانب الشرقي للمسجد بحجرتين صغيرتين ، لكل منهما باب يوصل إلى المسجد ، وهناك باب داخلي يصل كلا الحجرتين بالأخرى ، وهاتان الحجرتان أعدتا كاستراحة لكبير المعلمين بالمدرسة ، أو يمكن اعتبارها بمثابة مكتب خاص له يستريح فيه بين أوقات المحاضرات ، أو يستقبل فيه أهل العلم والأدب من الذين يترددون على المدرسة أو الذين يحاضرون فيها ، ولا تزالان تستعملان حتى الوقت الحاضر لنفس الغرض ، وذلك بخلاف مسكن كبير المعلمين الذي أعد ليعيش فيه .

- **مساكن الطلاب** :

هذه المساكن مخصصة لطلاب القسم الداخلي ، وهي تنقسم إلى وحدات ، كل وحدة عبارة عن حجرتين ، أحداهما فوق الأخرى ، ويصلهما سلم داخلي ، ولا تزال هذه المساكن تستعمل في نفس الغرض الذي بنيت من أجله ، ويعيش الآن بها طلاب جاءوا من شتى أنحاء سورية من أجل أن يلتحقوا بالمعاهد العلمية المختلفة في العاصمة دمشق .

- **مسكن خادم المسجد** :

يشمل هذا المسكن عدة حجرات ، كما يشمل المرافق الضرورية التي تلزم المسكن ، ومازال هذا المسكن يستخدم لنفس الغرض .

- **دورات المياه (المراحيض):**

وهي لا تزال حتى الوقت الحاضر تستعمل لنفس الغرض الذي بنيت من أجله ، والمياه الجارية ممتدة إليها ، وهي مراحيض و حمامات نظيفة جهزت لاستخدام الطلاب ، والعاملين بالمدرسة .

مساحات مغتصبة :

المساحة الأولى : ليست تابعة للمدرسة النورية في الوقت الراهن ، إذ اغتصبها الجيران ، ويعتقد أن هذه المساحة كانت مطبخاً ، وقاعة لتناول الطعام .

المساحة الثانية :

اغتصبت في نفس الوقت الذي تم فيه اغتصاب المساحة الأولى ، ويعتقد أنها كانت مخزناً للبقول ، ومواد الطعام (كرارًا) .

المساحة الثالثة :

وكانت مخصصة لتكون مخزناً عاماً للمدرسة النورية ، تحفظ فيها أدوات التنظيف ، والمصابيح الزائدة عن الحاجة ، والفرش ، وما شابه ذلك ، وهذه المساحة نالها شيء من الإهمال ، مما دفع جيرانها إلى اقتطاعها من المدرسة ، ولكن كبير المعلمين بالنورية تصدى لهم في ذلك الحين ، وحاول منعهم بكل الطرق ، ولكنه فشل في ذلك ، غير أن الرجل لم يفقد الأمل في استرداد هذه المساحة في وقت من الأوقات ، فترك بابي هذا المخزن مكانهما ، على الرغم من الحائط الذي شيد من المغتصبين خلف البابين ، وقد فعل ذلك ليكون البابان دليلاً على أن المساحة الواقعة خلفهما جزء لا يتجزأ من المدرسة النورية الكبرى .

محاضرون في النورية الكبرى :

كانت المدرسة النورية الكبرى بدمشق مخصصة لدراسة العلوم الشرعية على مذهب الإمام / أبي حنيفة النعمان (رضي الله عنه) ، وعلى هذا خصص للتدريس فيها نخبة ممتازة من علماء الأحناف ، بالإضافة إلى مشاهير أهل الأدب والعلم ، ونذكر من الذين درسوا في النورية ، ما يلي : -

بهاء الدين بن العقادة ، وقد درس بها إلى أن توفي سنة 566 هـ ، وبرهان الدين مسعود ، وقد درس بها إلى أن توفي سنة 599 هـ .

والشرف داوود ، وقد عمل بها حتى سنة 623 هـ ، ثم اعتزل العمل ليتولاه عالم مشهور بالدين والعلم ، وحب أهل العلم واحترامهم له ، ونقصد به : جمال الدين محمود ابن أحمد الحضيري ، وقد ظل بها إلى أن توفي سنة 636 هـ .

ونذكر : صدر الدين إبراهيم الذي درس بالنورية نيابة عن قوام الدين محمد ابن جمال الدين الحضيري ، وقد ظل صدر الدين يعلم فيها حتى شب قوام الدين ، وأصبحت ثقافته تساعده على تأدية هذا العمل فتولاه ، وظل يؤديه حتى توفي سنة 665 هـ .

ونذكر : نظام الدين الحضيري ، وقد تولى بعد أخيه قوام الدين ، وظل يعمل بالنورية ، حتى توفي سنة 698 هـ

ونذكر : صدر الدين البصراوي ، وقد درس بالنورية حتى توفي ، سنة 737 هـ .

وكذلك : عماد الدين بن الطرسوسي ، وقد درس بها حتى توفي سنة 748 هـ .

الأوقاف على النورية الكبرى :

كان نور الدين محمود مؤمناً كل الإيمان بأن العلم هو أهم الوسائل للنهوض والتقدم ، لذلك أكثر من بناء المدارس والمعاهد العلمية ، ولكي يضمن لها الاستمرار والاستقلال من أجل أن تؤدي وظيفتها كمؤسسات تربوية تعليمية ، أوقف لها الأوقاف السخية ، كما أنه شجع أهل الثراء على أن يقتدوا به ، ومن أمثلة ذلك الأوقاف التي أوقفها نور الدين محمود على المدرسة النورية الكبرى بدمشق .

سجلت هذه الأوقاف على الحجر الذي يكون العتبة العليا لباب المدرسة النورية ، والكتابة الموجودة على الباب واضحة تماماً .

وتقول هذه الوقفية بعد البسملة ، أن الذي أمر بإنشاء هذه المدرسة الملك العادل الزاهد / نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر (ضاعف الله ثوابه) .

وأنه أوقفها على أصحاب الإمام سراج الأمة / أبي حنيفة النعمان (رضي الله عنه) ، ووقف عليها وعلى الفقهاء والمتفقهة بها ، جميع الحمام المستجد بسوق القمح ، والحمامين المستجدين بالوراقة خارج باب السلامة ، وكذلك الدار المجاورة لهما .

وكذلك الوراقة بعونية الحمى ، وجنينة (حديقة) الوزير ، والنصف والربع من بستان الجوزة بالأرزة ، والأحد عشر حانوتاً خارج باب الجابية ، والمساحة الملاصقة من الشرق ، وكذلك التسعة حقول بداريا .

وتختتم الوقفية قائلة : على ما نص وشرط في كتب الوقف رغبة في الأجر والثواب ، ونقدمه بين يديه يوم الحساب ، فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه ، إن الله سميع عليم ، وذلك في مدة أخرها شعبان سنة 567 هـ .

ومعنى الفقرة الأخيرة من وقفية نور الدين على المدرسة النورية ، هو أن هذه الأوقاف تسلم تامة كاملة إلى المدرسة في خلال مدة أخرها شهر شعبان ، سنة 567 هـ .

والله تعالى ولي التوفيق ،،،

د . يسري عبد الغني عبد الله

الهوامش والأسانيد

1 - أحمد شلبي ، موسوعة الحضارة الإسلامية ، دار النهضة المصرية ، القاهرة ، 1974 م ، 5 / 143 - 145.

2 - نراجع : النعيمي الدارس فيما في دمشق من المدارس ، دمشق ، 1948 م ، 1 / 99 ، 331 ، 407 ، 447 ، 606 ، 648

3 - شمس الدين الذهبي ، أعلام النبلاء ، مؤسسة الرسالة ، 1982 م ، 2 / 71 ، 75 ، 76 - وكذلك : ابن الشحنة ، الدر المنتخب في تاريخ حلب ، بيروت ، 1309 هـ ، الصفحات على التوالي : 115 ، 110 ، 111

4 - ابن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، مخطوطة محفوظة بجامعة كمبريدج ، تحت رقم 1010106 ، ومنها صورة بدار الكتب المصرية ، ص 165 ، وكذلك : النعيمي ، الدارس فيما في دمشق من المدارس ، دمشق ، 1948 م ، ص 401

5 - ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ليدن ، هولندا ، 1907 م ، ص 284

6 - أحمد شلبي ، التربية والتعليم في الفكر الإسلامي ، مرجع سبق ذكره ، ص 129

7 - أبو شامه ، الروضتين ، القاهرة ، 1287 هـ ، 1 / 229 ، وكذلك : ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، مخطوطة بمكتبة لاهاي ، هولندا ، تحت رقم 1466 ، ومنها صورة محفوظة بمكتبة جامعة الدول العربية بالقاهرة ، ص 44

8 - النعيمي ، الدارس فيما في دمشق من المدارس ، مرجع سابق ، 1 / 607

9 - أحمد شلبي ، التربية والتعليم في الفكر الإسلامي ، مرجع سابق ، ص 130

10 - أسعد طلس ، ذيل ثمار المقاصد ، الطبعة الأولى ، دمشق ، بدون تاريخ ، ص 158

11 - صلاح الدين المنجد ، خطط دمشق ، بيروت ، 1946 م ، ص 33 وما بعدها

12 - أحمد شلبي ، التربية والتعليم في الفكر الإسلامي ، مرجع سابق ، ص 132 - 137 .

13 - نراجع لمعرفة أهم مدرسي المدرسة النورية الكبرى : محمد بن علي بن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، مخطوطة محفوظة بمكتبة لاهاي ، هولندا ، ومنها صورة موجودة بقسم المخطوطات ، بدار الكتب المصرية ، القاهرة ، ص 44 - 45 ، وكذلك : النعيمي ، الدارس فيما في دمشق من المدارس ، مرجع سابق ، 1 / 618 - 619

14 - يسري عبد الغني عبد الله ، دور الأوقاف الإسلامية في دعم التعليم والثقافة ، القاهرة ، 2009 م

15 - سبق للباحث أن تناول موضوع التعليم في عهد نور الدين زنكي ، وذلك أكثر من مرة ولكن من زوايا مختلفة ، وذلك ضمن اهتمام الباحث بالتعليم في الإسلام بوجه عام ، لذا لزم التنويه

تم بحمد الله

سيرة ذاتية موجزة



الاسم : **د.يسري عبد الغني عبد اللّه**

البريد الالكتروني : yusri_52@yahoo.com

العمل :

ـ مؤسس ورئيس مركز الأصالة والمعاصرة للبحث العلمي و التنمية الثقافية ، بالقاهرة .

ـ نائب رئيس مركز الدراسات والأبحاث اللغوية والقرآنية ، بيروت –لبنان و ليماسول - قبرص ـ

محاضر في تاريخ الأدب والبلاغة – بجامعة الأزهر الشريف

ـ باحث وخبير في التراث الثقافي –معتمد لدى أكثر من جهة دولية

ـ مدير عام النشر والتحرير ـ بوزارة الثقافة سابقًا

ـ يحاضر في أكثر من معهد وكلية حكومية وخاصة خارج مصر وداخلها

ـ يعمل كمستشار لأكثر من جهة تهتم بالشأن الثقافي والفكري في العديد من الدول العربية والأوربية وكذلك العديد من مراكز الأبحاث العالمية الاستشراقية

المؤهلات والخبرات :

ـ حاصل على درجة الدكتوراه من معهد الدراسات الاستشراقية والمقارنية التابع لجامعة وارسو ـ بولندا 2003

ـ حاصل على درجة الماجستير في الأدب المقارن –جامعة جنوب الوادي-مصر 2000

ـ أربع دبلومات عليا في الأدب والتاريخ والفلسفة من جامعات : الأزهر ، القاهرة ، عين شمس المنيا (في الفترة من 1976 إلى 2000)

ــ ليسانس في اللغة العربية والدراسات الإسلامية من كلية دار العلوم / جامعة القاهرة ، 1975

ـ يجيد 3 لغات أجنبية بالإضافة إلى العبرية القديمة والحديثة

الخبرات :

ـ عمل كمدرس للغة العربية وآدابها في المعاهد الأزهرية ، لمدة سبع سنوات

ـ عمل كضابط في القوات المسلحة (ضابط احتياط) بإدارة التوجيه المعنوي حتى وصل إلى درجة نقيب

ـ عمل بالهيئة المصرية العامة للكتاب كباحث ومحرر حتى وصل إلى درجة مدير عام ـ عمل كسكرتير ومدير ورئيس لتحرير أكثر من مجلة ثقافية ، منها : الجديد ، القصة ، عالم القصة ، أمواج ، المسرح ، عالم الكتاب ، علم النفس ، سلسلة المركز القومي للطفولة ...

ـ رأس ومازال العديد من لجان التحكيم في المجلات الأدبية وفي المسابقات الأدبية بمختلف أنواعها في مصر وخارجها ، في الشعر والقصة والرواية والمسرح . .

ـ شارك و مازال في العديد من المؤتمرات والندوات والملتقيات الثقافية والفكرية في مصر وخارجها

ـ شارك ومازال كمعد ومقدم وضيف للعديد من البرامج الثقافية في العديد من وسائل الإعلام المصرية والعربية .

ـ كتب مئات المقالات في عشرات من المجلات المحكمة في مصر والوطن العربي وأوربا . ــ

ـــ حصل على العديد من الجوائز والتكريمات أكثرها خارج مصر

المؤلفات :

ـ له أكثر من 60 كتابًا في مجالات الفكر والثقافة والأدب والتاريخ والنقد ،

كما له العديد من الكتب المحققة ، في مختلف مجالات التراث العربي و الإسلامي نشرت في مصر و الوطن العربي وخارجهما .

محتوى الكتاب